المشرق

السنة الثالثة والاربعون

نيسان – حزيران ١٩٤٩

سمات النصارى واليهود في الاسلام

الصليب والزنار والعمامة والغيار

الشروط العمرية

بقلم حبيب زيات

لا بدّ لمن شاء درس تاريخ النصرانية في الاسلام، منذ الفتح الى اواخر القرن الثالث عشر للهجرة، من البحث في الاسباب والعوامل التي أدّت الى تقلّص ظلّ المسيحية وانحطاطها في الشرق، بعد ان كانت شائعة في اعظم المعابد، سائدة في اكثر الامصار. واول ما يبدو له من هذه الاسباب، بعد تغلّب الدين الاسلامي، « الشروط المشهورة بالعمرية » التي اوجبها الشرع على اهل الذمّة، ومعظمهم من اهل الكتاب، الذين اقرّهم الرسول وخلفاؤه في حمايتهم، كما يقال اليوم. وهذه الشروط هي التي جرّت عليهم في كل حين اصناف المحن والشدائد، وارغمت الكثيرين منهم على الخروج

من دين اباثهم ، وانتحال الاسلام صيانة لدمائهم واموالهم ، وهرباً من الذل والصغار . فاقفرت الديار والاديار ، « وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد والصوامع جوامع والمذابح اسدة الشيطان مصارع » ، كما قال العماد الاصبهاني[1] .

ولا نعلم ان احداً تصدَّى قطّ للتنقيب في أصل هذه الشروط القاهرة ، وفي اي زمن وُضعت حتيقةً لمعرفة صحة نسبتها ، كما زعموا ، الى الخليفة عمر بن الخطاب ، او نبّه على ما طرأ عليها بتوالي السنين وتعاقب الدول من الزيادات ، ودُسَّ فيها من الزور والباطل . واقلّ ما يجوز اليوم ان يقال فيها بالاجمال انها وضعت بعد الصدر الاول من الاسلام ، ونسبت مغالطةً لثاني الخلفاء الراشدين ، ليكون لها بفضل التلقّب باسمه اصل راسخ في السنة ، وتكتسب من مزيّة الانتماء اليه سلطة لا تعادلها سلطة اخرى بعد الشارع الاول .

ومن تدبَّر هذه الشروط بعين الناقد البصير ، وتذكّر موقف الامام الذي قاد اول خُطى الاسلام ، وشهد اعظم الفتوح التي غيّرت وجه البسيطة ، ونهضت بالعرب من الثرى الى الثريا ، يدرك لأوّل وهلة استحالة نسبة هذه الشروط الى ابن الخطاب ، لكثرة ما كان يثقل عاتقه وقتئذٍ من اعباء السياسة ، ويستغرق كل اوقاته من مشاغل الولاية والتدبير ، او يتوزع باله من مهامّ تعبئة الجيوش ومتابعة الامدادات وتوجيه الامراء واختيار العمال ومراقبتهم وكتابة اموالهم اذا ولّاهم . ثم مقاسمتهم ما زاد عليها ، فيما قيل[2] . ومن اشدّ ما كان يستدعي نظره من الامور ما كان اوصاه به ابو بكر من « الحذر من هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله الذين انتفخت اجوافهم وطمحت ابصارهم واحب كل امرئ لنفسه »[3] .

وقد ذهبوا كلّ مذهب في وصف تيقظه وسهره وشدة سيطرته ، حتى مثّلوه لنا دائماً وبيده الدرّة المشهورة يطوف بها الاسواق ، ويقوّم الاخلاق ، ويتجسّس ما يقال ليلاً في المنازل والاحياء ليقف على ما تنشده المرأة في خدرها ويطّلع على كل سرّ وخفية ، ومع ما وصفوه به من الغلظ والفظاظة ،[4]

(١) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامة ٢ : ١٢٤

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ، طبعة اوربة ، ٢ : ٢١٩

(٣) كتاب الخراج لابي يعقوب ، ١٢-١٣

(٤) كتاب الخراج ١٢-١٣ ، ومروج الذهب للمسعودي ٧ : ٤٥

اشتدوا ، في ضدّ ذلك ، في نعته برقة القلب وحبّ المساكين والفقراء والحرص على توزيع الصدقات والاعطية بيده ، ورووا حديث من قال : « رأيت عمر ابن الخطاب يحمل ديوان خزاعة حتى يترل تُديد فتأتيه بقديد النساء فلا تغيب عنه امرأة بكر او ثيب فيعطيهنّ في ايديهنّ ثم يروح فيترل عسفان فيفعل ذلك حتى توفي »[1] فهل يُعقل أنّ مَن استقلّ بمثل هذه الاعمال ، التي لا تقوم بها الّا الجموع ، يجد فراغاً من وقته للتدخل في خياطة سراويلات النصارى ، وفرق شعورهم ، وشرك نعالهم ، وما اشبه من الخسائس التي لم يستحيوا من الصاقها به ؟ ومن الغريب ان يذهل الفقهاء عما يترتّب على مثل هذه التهمة الشائنة من الغضّ والتحقير لمن اتصف نظيره بسموّ المدارك وثقوب الفطنة ، وبعد النظر في السياسة والمداراة ، وكان لا يخفى عليه شدّة حاجته الى رعيّته النصارى اهل البلاد من الأكرة والمزارعين والصناع والتجار لتموين الجنود بالاغذية والاسلحة والالبسة ، والنهوض بسائر مقتضيات الحضارة التي تقوم عليها قواعد مملكته ، في حين لم يكن للعرب البادية اقلّ دربة عليها او استطاعة لها ، فضلاً عن معرفته قبلاً ما تقدم للعرب الغسانيين والمنذريين النصارى من التحزّب لانهم العرب المسلمين ، والانضمام اليهم لقتال الاعداء من الروم والفرس . ولا شكّ انه كان يلمح ايضاً اسراع اليعاقبة والنساطرة من فرق النصارى الى فتح ابواب المدن للعرب المحاصرين ، واستقبالهم بمزيد الابتهاج والطرب ؛ واعانهم المتألسون اي المغنون والراقصون بغضة منهم للروم البيزنطيين ، الذين كانوا دائماً شديدي الظلم لهم والتضييق عليهم .

ومن اظهر الشواهد على حرص عمر على مداراة النصارى وعدم الاساءة اليهم لا حبّاً لهم في الحقيقة ، ولكن رغبة في استغلالهم واستخدامهم ، ما كتبه الى ابي عبيدة في الوصاة بهم حيث قال له :

« اذا اخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم ولا سبيل أرأيت لو اخذناهم فاقتسمناهم ما كان يكون لمن يأتي بعدنا من المسلمين ؟ والله ما كانوا يحدون انساناً يأكلونه ولا ينتفعون بشيء من ذات يده وان هؤلاء يأكلهم المسلمون ما داموا احياء فاذا هلكنا وهلكوا اكل ابناؤنا ابناءهم ابداً ما بقوا فهم عبيد لاهل دين الاسلام ما دام دين الاسلام ظاهراً فضرب

١) فتوح البلدان ٢ : ٤٥٢

عليهم الجزية ، وكفّ عنهم السبي ومنع المسلمين من ظلمهم والاضرار بهم واكل اموالهم الا بحلها ووفّى لهم شرطهم الذي شرطت لهم على جميع ما اعطيتهم »[1]

وهذا الاقرار ، على جفائه وخشونته ، لا مزيد عليه في الصراحة والصدق. فالنصارى في نظر عمر تحوّل المسلمين وتأكل لهم ولابنائهم ، فحبّبه لهم محبة الوالد لدابته ، وعنايته بهم عناية الاعرابي بناقته لما تدرّ عليه من لبن او تنتجه من النَعَم . وفي معناه ايضاً ما رواه ابن عساكر عن الاوزاعي ان عمر كتب في اهل الذمة « ان من لم يطق منهم فخففوا عنه فانّا لا نريدهم لعام ولا لعامين »[2]. وعلى هذه القاعدة من حبّ الاستغلال والعناية بالرقيق والعبيد كانت تتمشى سياسة عمر وعمّاله. فقد رووا عن زياد أنّه كان يقول : « احسنوا الى المزارعين فانكم لا تزالون سالمًا ما حسنوا »[3]. ومعلوم ان المزارعين وقتئذٍ كان جلّهم من النصارى والانباط ، ولم يكن بينهم احد من الاعراب المسلمين لانصرافهم باجمعهم الى الغزو والجهاد.

ومثل هذه الشفقة الزائفة كان يحنو عمر على رعيّته من اهل الذمة . ولما قدم الشام « شكوا اليه وقالوا : يا امير المؤمنين انهم يكلفوننا ما لا نطيق يكلفوننا الدجاج والشاء فقال : لا تطعموهم الا مما تأكلون مما يحلّ لهم من طعامكم »[4] وهو ما يثبت انه كان على كل حال لا يخلو من عطف على المساكين والزمنى ولما كان بالجابية من ارض دمشق « مرّ بقوم مجذّمين من النصارى فامر ان يعطوا من الصدقات وان يجري عليهم القوت »[5].

واجتاز مرة في المدينة بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال :

« من اي اهل الكتاب انت ؟ فقال يهودي قال : ما الجأك الى ما ارى ؟ قال اسأل للجزية والحاجة والسنّ . قال فاخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم ارسل الى خازن بيت المال فقال : انظر هذا وضرباءه فوالله ما انصفناه ان اكلنا شبيبته ثم

١) كتاب الخراج ١٦٨

٢) مجلد من تاريخ ابن عساكر ، خزانة بريتش موزيوم Or. 3024 f° 89

٣) عيون الاخبار لابن قتيبة ١ : ١٠٥

٤) مجلد من تاريخ ابن عساكر ، خزانة بريتش موزيوم Or. 3024 f° 90

٥) فتوح البلدان ١ : ١٣٩

فخذله عند الهرم . وانما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من اهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه »[1]

« ولما رجع من الشام مرّ في مسيره على قوم قد أقيموا في الشمس يُصبّ على رؤوسهم الزيت فقال ما بال هؤلاء ؟ فقالوا عليهم الجزية لم يؤدّوها فهم يعذبون حتى يؤدّوها فقال عمر : ما يقولون هم وما يعتذرون به في الجزية ؟ قالوا : يقولون لا نجد قال : فدعوهم لا تكلفوهم ما لا يطيقون فاني سمعت رسول الله يقول : لا تعذّبوا الناس فان الذين يعذّبون الناس في الدنيا يعذّبهم الله يوم القيامة وامر بهم فخُلّي سبيلهم »[1]

ومن هذه الادلّة يتّضح ان عمر بن الخطاب كان رؤوفاً باهل الذمة محسناً اليهم ، ولم يكن قط ذلك الظالم الغاشم الذي صوّره لنا الرواة وصاغة الاخبار والاحاديث ، منهمكاً كلّ ايامه في مناقشة النصارى في ازيائهم والحقير من امورهم ، مولعاً باضطهادهم والاخذ بخناقهم . نعم ان رأفته لم تكن رأفة مجردة عن الحساب والفائدة ، ولكنها على كل حال سياسة ملك فطن حكيم بعيد سرامي النظر ، عارف باقدار الرجال من رعيّته ، بصير بحاجته الى الاكفياء منهم للولاية والتدبير .

وقد عزوا له ، في ضدّ ذلك ، اقوالاً لا تنطبق على احوال زمانه ، ولا تشبه آراءه في التدبير والولاية اهمها انكاره على عماله وامرائه الاستعانة بالنصارى في الكتابة والجباية وسائر الخدم الديوانية . وزعموا ان معاوية كتب له : اما بعد يا امير المؤمنين فان في عملي كاتباً نصرانياً لا يتم امر الخراج الا به فكرهت ان اقلده دون امرك فكتب اليه : عافانا الله واياك قرأت كتابك في امر النصراني اما بعد فان النصراني قد مات والسلام »[2] وقد روي مثل هذه الحكاية عن سعد بن وقاص في عامل يهودي بالعراق (صبح الاعشى ١ : ٦٢) وقوله : « مات النصراني والسلام » هو قول الخليفة العباسي الناصر لدين الله في ابن زطينا كاتب ديوان الانشاء ببغداد ، حين ابى ان يفارق دينه النصراني ، وتعذّر وقتئذ وجود مسلم كفوء له في علمه وخبرته يخلفه في منصبه . وطولع الخليفة في شأنه فكتب لهم : « مات ابن زطينا والسلام » اي ما تعملون اذا

---

١) كتاب الخراج ١٥٠-١٥١ .

٢) شروط النصارى لمحمد بن عبدالله بن احمد بن زبر الثمامي (رقم ٣٩٥٢ تاريخ) دار الكتب المصرية ص ٨٣ .

مات أليس تجدون حينئذٍ من يقوم مقامه ؟ ومع ذلك لم يتيسّر لهم استخلافه وما زالوا به حتى اسلم هو وابن اخته وقد ذهل مؤلف « شروط النصارى » عن بعد ما بين زمان الخليفتين وهو لا يقل عن ستة قرون ، ونسب لعمر ما هو في الحقيقة للناصر لدين الله العباسي .

وكلّ عارف باخبار ايام عمر ومعاوية يعلم ان الدواوين وقتئذٍ كانت بالشام كلها بالرومية ، وان كل كتابات الخراج والجباية والجند وسائر الاعمال السلطانية لم تكن تدوّن الا بالقلم الرومي ، وكذلك كانت النقود رومية حتى زمان عبد الملك بن مروان ، اي بعد ست وسبعين سنة من الهجرة ، فكانت تتداول وعليها الصليب وصورة المسيح وامه فلم يكن بدّ للعرب من كتاب يدوّنون فيهم الرومية وتعريبها ، ولذلك لم يكن عند معاوية كاتب واحد منهم فقط نصراني ليستشير في شأنه الخليفة ، بل مئات وآلاف من رجال القلم والملاحة والصناعة والتجارة والزراعة ، وكلهم من المسيحيين المخلصين لمعاوية الذين عرف كيف يؤلف قلوبهم ، وعليهم عوّل في سياسة مملكته ، واليهم حقيقةً يرجع الفضل في خدمتها وبناء قواعدها ، ولم يكن وقتئذٍ اجدر منهم بمثل هذه الخدمة واوفر اضطلاعاً باعبائها لخبرتهم بها ، وجهل العرب ، في زمان عمر ، غير الغزو والقتال والحرب لغاية البداوة عليهم . فلم يكن من ثم سبيل للاستغناء عن النصارى ، سكان البلاد . وقد شهد عمر بن عبد العزيز بحاجة العرب الى النصارى الذين سماهم مغالطةً اهل الشرك فقال في كتاب الى عمّاله « ان المسلمين كانوا فيما مضى اذا قدموا بلدة فيها اهل الشرك يستعينون بهم لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير »[1] واي ضرر تُرى كان يجد ابن الخطاب في كتابتهم سوى ما يدّعونه زوراً من بغضه لهم والحذر منهم كالجواب الذي وضعوه على لسانه حين « ذُكر له غلام كاتب حافظ من اهل الحيرة وكان نصرانياً فقيل له : لو اتخذته كاتباً فقال : لقد اتخذت اذاً بطانة من دون المؤمنين . »[2] وليُنظَر هل كان يوسع عمر حينئذٍ وجود بطانة له من الكتاب

١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابي محمد عبدالله بن عبد الحكم ، ص ١٦٥

٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ١ : ٢٤

المؤمنين ، ومعظم الكتبة والحسّاب ، ان لم يكونوا كلهم ، من الكفار نصارى الحيرة والشام ؟ ولقد احتاج مرة الى واحد منهم ليفسّر له كتاباً ورد لا شك بالرومية فقال لابي موسى الاشعري « أدعُ لي كاتبك ليقرأ لنا كتباً جاءت من الشام فقال ابو موسى انه لا يدخل المسجد قال عمر : أبه جنابة ؟ قال : لا ولكنه نصراني قال فرفع يده فضرب فخذه حتى كاد يكسرها (وكذا كان عمر عندهم فظاً في كل ما يفعله) ثم قال : مالك قاتلك الله اما سمعت قول الله عز وجل : « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء » ألا اتخذت رجلاً حنيفياً ؟ فقال ابو موسى : له دينه ولي كتابته فقال عمر : لا اكرمهم اذا اهانهم الله ولا أعزهم اذا اذلهم الله ولا ادنيهم اذا اقصاهم الله »[1].

وهذا الحديث بين الشبهة ، موضوع برمّته لا يصدق لا على ابي موسى ولا على عمر وهو قول جاهل حقيقة اخبار زمان عمر ، او ذاهل عنها ، ويشبه ان يكون قول رجل عاش في القرن الثاني او القرن الثالث للهجرة ، حين بدأت المساجد ان تكتسب بعض حرمة بيوت الله كالحرمة التي كانت معروفة للكنائس المسيحية المقدسة . وانما كانت المساجد قبلاً مجالس للقوم يجتمعون فيها ويتحدثون كالأندية ويطعمون ويشربون . ومن اظهر الشواهد على هذا المعنى ما ذُكر عن لبيد الشاعر انه « كانت له جفنتان يغدو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم[2] » ولذلك جاء في القرآن « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا . » (٧ : ٢٩) ولما اتخذت المساجد ان تتحوّل الى معابد بقي فيها معنى الامية والابتذال ، ولم تتصف بكل ما يجب لها من المهابة والجلال ، فكان يدخلها الطاهر وذو الجنابة ، ويقيم فيها من شاء من المتبطلين المتعطلين روّاد اللهو ، كالاسواق يجتمع فيها التاجر والصيرفي والشاعر والمغني ، ولم تكن تبنى بادئ بدء بل تُختَط فقط او تُحوَّط بالقصب[3] ، ويُصلّى فيها فوق التراب . واول من فرش ارضها بالحصى فيما يظهر زياد « حين رأى الناس في مسجد البصرة ينفضون ايديهم اذا تربت وهم في الصلاة فقال :

١) عيون الاخبار لابن قتيبة ١ : ٤٢

٢) الاغاني ١٤ : ١٧

٣) فتوح البلدان ٢ : ٥٢

لا آمن ان يظن الناس على طول الايام ان نفض الايدي في الصلاة سنّة فامر بجمع الحصى والقائه في المسجد »[1]. ومن هذا الحصى المفروش في ارض المسجد كان رجال الشيعة يقذفون بعض الخطباء « ولما شخص معاوية من الكوفة وخلّف عليها المغيرة بن شعبة فصعد المنبر يوم الجمعة ليخطب حصبه حجر بن عدي وكان من شيعة علي في نفر من اصحابه »[2].

« وكان في مسجد بني جذيمة في الكوفة حوانيت الصيارفة »[3]. وربما عن للمتذاكرين في الطرب والغناء ان يجتمعوا في المساجد ويتناظروا في تفضيل المغنين ، وترتفع حينئذٍ في بيوت العبادة اصوات المتطربين بدلاً من انغام المرتلين . ذكر حماد قال :

« تذاكرنا ونحن في المسجد انا والزبير بن ابي الجهم الغناء ايّه احسن فجعل يقول واقول فلا نجتمع على شيء فقلت : اذهب بنا الى مالك بن ابي السمح فهو بيننا فوجدناه في المسجد فقال : ما جاء بكما فاخبرناه فقال قد جرى هذا بيني وبين معبد وقال وقلت فجاء في معبد يوماً وانا في المسجد وقال : قد جئتك بشيء لا تردّه فقلت : وما هو ؟ قال : لحن ابن سريج :

وليس بمرزوق اللسان وصوته ولكنه قد خالط اللحم والدما

ثم قال لي معبد : أسمعك ؟ قلت نعم واريته اني لم اسمعه قبل . فقال : اسمعه مني ففتّى فيه وغنى في المسجد فما سمعت شيئاً قط احسن منه فافترقنا وقد اجمعنا عليه »[4]

ومن اشنع ما يدلّ على امتهان المساجد وقلة مهابتها انه كان يُبال عندها ويُحدَث عند الحاجة ، دون اقلّ تورع . حكى المدائني قال :

كان نبهان رجلاً من الانصار وشهد بدراً وجلده النبي في الخمر اربع مرات : مرّ نبهان بمخرمة بن نوفل وقد كُفّ بصره فقال : ألا رجل يقودني حتى ابول ؟ فاخذ بيده نبهان فلما بلغ مؤخر المسجد قال هيهنا فَبُلْ فبال فصيح به فقال : من قادني ؟ قيل : نبهان قال : لله علي ان اضربه بعصاي هذه فبلغ نبهان فاتاه فقال له : هل لك في نبهان ؟ فقال نعم فقال : قم فقام معه فاتى به عثمان بن عفان وهو يصلي فقال : دونك الرجل فجمع يديه في العصا ثم ضربه فقال الناس : امير المؤمنين فقال : من قادني ؟ قالوا : نبهان فقال لا اعود الى نبهان ابداً »[5]

ومن هذه الملحة الفريدة يستدلّ على ان بعض الانصار كانوا يعرفون

---

١) فتوح البلدان ٣ : ٣٥٠

٢) الاخبار الطوال للدينوري ، ٢٢٦

٣) فتوح البلدان ٣ : ٣٨٥

٤) الاغاني ١ : ١١٣

٥) عيون الاخبار ١ : ٢٢٠

كيف يهزلون احياناً ويعبثون بحرمة المساجد ووقار الخلفاء.

وربما استباح بعض الصلحاء البول امام الناس في المساجد حدّث المقريزي في عقوده ان الشيخ احمد البدوي المشهور في مصر نزل الى الجامع « فلما فرغ الخطيب وأقيمت الصلاة وضع الشيخ رأسه في طوقه بعد ما قام قائماً وكشف عن عورته بحضرة الناس وبال على ثيابه وحصر المسجد واستتر ورأسه في طوق ثوبه وهو جالس الى ان انقضت الصلاة ولم يصلِّ »[1].

وهناك نكتة اخرى اشد دلالة على ابتذال المساجد وما بين يديها من الرحاب ، نقلها ابن عساكر ولم يرَ اقلّ حرج او خجل من تدوينها ونحن نستبيح القارئ العذر الجميل بروايتها عنه بلفظها القذر كما وردت في تاريخه المخطوط وتهذيبه المطبوع ، على قلة تهذيبه ، قال :

« انبأنا محمد بن زياد بن الاعرابي قال : قال الهيثم بن عدي مات الحجاج بن يوسف وفي سجنه ثمانون الفاً محبوسين منهم ثلاثون الف امرأة فوجد في قصة رجل : بال في الرحبة و . . ري في المسجد فقال اعرابي :

اذا نحن جاوزنا مدينة واسط . . ربنا وصلينا بغير حساب »[2]

ولما دخل عبدالله بن علي بن العباس دمشق دخلها بالسيف ثلاث ساعات من النهار وجعل مسجد جامعها سبعين يوماً اصطبلاً لدوابه وجماله[3].

واقبح من ذلك ان بعض الجوامع بعد تغلب الصيانة والعبادة عليها كانت لا تتنزه ، في بعض المدن ، عن جوار بيوت الفسق والبغاء الملاصقة لها . ومن هذه البلاد قصبة السوس في خوزستان زارها البشاري المقدسي وقال : « ترى فيها دور الزناء عند ابواب الجامع »[4]

وكانت بعض مساجد مصر غايـة في قلة النظافة واجتماع الاقذار فيها ، عاينها كذلك الرحالة المقدسي وقال في وصف اقليم مصر : « يكثرون الاشاوة في الصلاة والتنخع والمخاط في المساجد ويجعلونه تحت الحصر »[5]

---

١) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع للسخاوي ٩ : ١٤٩ — ١٥٠

٢) تاريخ ابن عساكر المخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق ٤ : ٣/١٣٥ وتهذيب ابن عساكر المطبوع ٤ : ٨

٣) تاريخ ابن عساكر ١٥ : ١٦١ ٤) احسن التقاسيم ٤٠٧ ٥) احسن التقاسيم ٥٢

ولما زار ابن سعيد المغربي فسطاط مصر في المئة السادسة للهجرة قال في وصف المسجد الجامع :

« دخلت اليه فعاينت حائطاً كبيراً قديم البناء غير زخرف ولا محتفل في حصره الذي تدور مع بعض حيطانه وتسط فيه . وانصرت العامة رجالا ونساء قد حملوه معهم ناحية اقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه اصناف المكسرات والكعك وما جرى مجرى ذلك والناس يأكلون منه في امكنة عديدة غير عتيقة جرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان باوانى ماء يطوفون على من يأكل قد حملوا الماء ليصل لهم منه ورقاً وصلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع وفي زواياه والسكبوت قد عظم بسببه في السقوف والاركان والحيطان والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة خطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة »[1]

وهذا الوصف ينطبق على غير مسجد واحد في مصر والشام ، فضلاً عما بعد من المدن والاقطار ، وهو وصف شبيه بالاسواق والرحاب منه بالمعابد والمصليات .

ومن هذه الاوصاف ونظائرها يتبين جيداً ان المساجد ، ولا سيما الاولى منها ، لم يكن لها قط مهابة الكنائس واجلالها ، فكان يدخلها او يخترقها من شاء من الطاهر والجنب كالطرق السابلة او المعابر ، فلا يصدق من ثم انه مُنع من المجيء اليها كاتب نصراني نظيف من كتاب الامراء احتاج اليه الخليفة نفسه لقراءة كتاب ورد له بالرومية ولم يستطع تفسيره له احد من بطانته المؤمنين . ويكفي القاء نظرة واحدة على كتب الاخبار والادب لمعرفة ان دخول النصارى المساجد كان مطلقاً مباحاً لا يُرى فيه اقلّ بأس . « وكان الوليد بن عقبة يُدخل ابا زبيد الشاعر الطائي المسجد وهو نصراني ويجري عليه وظيفة خمر وخنازير تقام له في كل شهر »[2]

وكان ابو زبيد هذا وفد على الوليد بن عقبة حين استعمله اخوه الخليفة ابن عفان على الكوفة ، فانزله الوليد داراً على باب المسجد لعقيل بن ابي طالب ، اخي الخليفة علي بن ابي طالب ، فكان ابو زبيد « يخرج من منزله حتى يشق الجامع الى الوليد فيسمر عنده ويشرب معه ويخرج فيشق المسجد وهو سكران »[3]

---

١) الخطط للمقريزي ١ : ٢٤١

٢) انساب الاشراف للبلاذري ٥ : ٢١

٣) الاغاني ٤ : ١٨١ — ١٨٢

وكان عكرمة الفياض ، كاتب بشر بن مروان ، اخي الخليفة عبد الملك ، قد تحمل حمالتين للاخطل الشاعر النصراني « وحدث امر بالكوفة فاجتمع له الناس في المسجد فقيل للاخطل ان اردت ان تكافئ عكرمة يوماً فاليوم. فلبس جبة خزّ وركب فرساً وتقلد صليباً من ذهب واتى باب المسجد ونزل عن فرسه . . . وجاء فوقف وابتدأ ينشد قصيدته :

« لمن الديار بحائل فوعال »[1]

« وكانت بكر بن وائل اذا تشاجرت في شيء رضيت الاخطل وكان يدخل المسجد فيقدمون اليه »[2]

ويؤخذ من هذه الشواهد ان المساجد كانت ايضاً مقامات للنصارى لانشاد الشعر ، ودوراً للقضاء تتحاكم اليهم فيها الخصوم ولذلك لما ولي محمد بن مسروق قضاء مصر عام ١٧٧/٧٩٣ « كان اول من ادخل النصارى المسجد ليحكم بينهم »

ومن شروط النصارى المنحولة لعمر بن الخطاب التي اقرّها الفقهاء والمؤرخون ، واحتجّ بها ابن تيمية في رسالة له في « مسئلة الكنائس » انه كان قد اشترط عليهم ان لا يتسموا باسماء المسلمين ولا يتكنوا بكناهم ولا يتلقبوا بالقابهم » وقد ابنّا بطلان هذه الخرافة في مقالة لنا توسعنا فيها جدًا ونشرناها في مجلة المشرق والخزانة الشرقية[3] فلتراجع .

ولو اردنا ان نتتبع بقيّة الشروط التي تداولها الكتاب ، دون ان اقلّ انتقاد لها ، لكان علينا دحضها بالحجج الصادقة وتبرئة الامام عمر بن الخطاب منها ، لانه اجلّ من ان يكون اقترف شيئاً من آثامها . وقد سكت عنها او جهلها كل الرواة الاقدمين ، واغفل ذكرها كلّ المؤرخين في القرنين الثالث والرابع ، ولم يشر اليها البلاذري بحرف واحد في كتابه « فتوح البلدان » وهو مظنّة وجودها ؛ ولما كتب المتوكل على الله كتابه الذي ابتدع فيه ظلم النصارى واذلالهم ، وامر فيه بالافحاش في التغليظ عليهم واضطهادهم ، لم يستشهد مرة بشيء من اقوال عمر في هذه الشروط ، وكان جديرًا ان يستند اليها في تصحيح اوامره والرجوع بها الى سنّة قديمة من تراث الخلفاء الراشدين . ويظهر ان

١) الاغاني ٧ : ١٨٧

٢) الاغاني ٧ : ١٧٩ ٣) المشرق سنة ١٩٦٨ عدد كانون الثاني - اذار ص ١-٢١

اول من رواها بنصها المشهور هو ابن عساكر ، ولم يذكر عن اي مؤلف قبله نقلها لنعلم من كان الواضع الاول لهذه الاحاديث الملفقة والارجح ان اول نواة نجمت منها في زمان الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهو اول من اصدر الاحكام الجائرة في حق النصارى واسف الى التضييق عليهم في البسهم وازيائهم .

وروى ابن عساكر ان عمر بن عبد العزيز كتب الى مالك بن المنذر بن الجارود : « اما بعد فان هذا الصليب علامة من علامة اهل الشرك لا يرون انه يقوم الا به وقد كانوا يظهرون منه امرًا كرهته ورأيت غيره فلا تدعنّ صليبًا ظاهرًا الا امرت به ان يكسر ان شاء الله واقمل ذلك في ما كان ارضك من صلب اهل الشرك » (١٦ : ١١٧)

وقد وقفنا في خزانة بريتش موزيوم في لندرة على شاهد قاطع لا يدع سبيلًا الى الشك والتردد في نسبة الشروط العمرية الى عمر بن عبد العزيز ونفيها عن عمر ابن الخطاب ، وهو رواية ابن عساكر باسناده له عن مسروق قال فيه بلسان النصارى عند ذكر الكنائس « ولا نأتي منها ما كان في خطط المسلمين » وزاد فيه « ولا نتشبّه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا سراويل ذات خدمة ولا نعلين ذات عذبة ولا شيء الا بزنار من جلد ولا يوجد في بيت احدنا سلاح الا انتهب » قال ابن غنم « وما رأيت هذه الزيادة في ما وقع الينا من عهود عمر بن الخطاب ووجدتها مروية عن عمر بن عبد العزيز . »[1]

وهذه الشهادة تؤيد كل التأييد نسبة الشروط الى الخليفة المرواني ونفيها عن الخليفة العدوي .

ومما يزيد في ترجيح هذا الرأي ويجدر ان يُحتجّ به ايضاً في اسقاط شروط اهل الذمة عن عاتق ابن الخطاب ، وإلحاق جانب منها بسميّه الخليفة الاموي شهادة وقفنا عليها لساويرس بن المقفع ، مؤرخ البطاركة الاقباط ، ننقلها بالحرف الواحد لاعترافه فيها بما تقدم لابن عبد العزيز من الاحسان الى النصارى والرفق بهم في بدء خلافته قال :

« كان هذا عمر بن عبد العزيز يصنع خيرًا عظيمًا امام الناس ويفعل السوء امام الله وامر ان لا يكون على اواني البيعة والاساقفة خراج وبدأ ان جعل البيع بغير خراج والاساقفة وبطل الجبايات وعمر المدن التي خربت وكانوا النصارى في امن وهدوء والبيع ثم بعد ذلك بدأ يفعل السوء وكتب كتابًا الى مصر مملوء غم وهو في مكتوب : « عمر يأمر ويقول :

١) مجلد من تاريخ ابن عساكر Or. 3024 f° 88

من اراد ان يقيم في حاله وبلاده فيكون على دين محمد مثله ومن لا يريد يخرج من اعمالي » وصاروا له النصارى ما بايديهم من التصرفات وتوكلوا على الله وصاروا خدمتهم المسلمين وصاروا عبرة لكثير ودخلت اليد على النصارى من الولاة والمتصرفين والمسلمين في كل مكان كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم وامر وقال ان تؤخذ الجزية من سائر الناس الذين لا يسلموا ولم تجرى عادتهم بالقيام بما قام به الله لكن اهلكه سرعة ولم يطل الملك لانه كان يشبه الدجال »[1]

ومن الامثلة التي تقدم بسطها ونقضها يتضح كثرة ما عُزي للامام عمر بن الخطاب من الانباء والاقوال المرجوحة ، والاحكام والاجوبة الموضوعة ، التي لا تشبه اخلاقه ، ولا تلائم زمانه وقد قبلها المؤرخون على علاتها واغضوا عن نفيها وتزييفها ، واقتصر العلماء من نقد الروايات والاحاديث المنحولة الصدر الاول من الاسلام على العلم المعروف بالجرح والتعديل ، وهو الذي نظروا فيه الى نقد من قال ، لا ما قيل ولذلك كثرت الريب والشبهات ، ولم يخل مؤلف واحد من بعض الاباطيل والخرافات ، وغلب الاعتقاد على صحة الشروط العمرية التي اختلقها الفقهاء باسم الخليفة الثاني وبنوا عليها مظالم النصارى مدة ثلاثة عشر قرناً ، وهي التي نثرت عقد نظامهم وشتّتت شملهم في الشرق والغرب وأخلت بيعهم ودياراتهم ، واستنزفت اموالهم ودماءهم ؛ وكان من اشكالها فيهم واشدها وبالا عليهم اربعة شروط اشتهرت بالسمات اي العلامات الفارقة ، ليُعرفوا بها لاول نظرة تقع عليهم فيُؤخذوا بالذل والصغار وهي « الصليب والزنار والعمامة والغيار ، وقد افردنا لكل منها جزءا برأسه جمعنا فيه كلّ ما وقفنا عليه من الاحكام والرسوم السلطانية والاسانيد والشهادات التاريخية التي تلقطناها بشقّ النفس ، وافنينا الايام في التنقيب عنها من اقوال الرواة والمؤرخين المسلمين ، ونبهنا على معادنها ومآخذها ، ليكون القارئ منها على اشدّ الثقة واليقين ، واليها وحدها يجب ان يُرجع في كتابة تاريخ النصرانية ، وعليها دون سواها يجب ان يعوّل في وصف ماضي احوال المسيحيين في الاسلام .

---

١) كتاب بدّر البطاركة الاسكندرانيين لساويرس بن المقفع ، طبعة ميلد ، ص ١٤٢-١٤٩ ، وطبعة بيروت ١٥٣-١٥٤ .

الصليب شعار النصرانية

للصليب في الاسلام اخبار وآثار جمعنا ما تيسر لنا العثور عليه منها في الجزء الذي اصدرناه مفرداً سنة ١٩٣٥ ، وفيه كل ما تلقطناه من اللُّمع والاشارات في غضون كتب الادب والتاريخ ، بين مطبوع ومخطوط ، مما وقفنا عليه في الخزائن الشرقية والغربية ، من مؤلفات الاقدمين التي افلتت من جوائح الزمن ، ونجت من ايدي التمزيق وألسنة الحريق . وهي على اقتصارها واختصارها ، كافية للدلالة على غابر حياة النصرانية في الشرق ، وتعريف الحدّ الذي رسمه لها فيه سيف الفاتحين ، منذ الاحتلال الى اضمحلال الخلافة العباسية في مصر على يد الاتراك العثمانيين في القرن السادس عشر . وقد رأينا ان نلخّص ايضاً هنا ما نصف به ماضي الصليب بين سمات النصارى في الاسلام ، ونضم اليه ما وقفنا عليه من بعض الزيادات في اوصافه واحواله ، ليكون هذا الكتاب مشتملاً على كل ما يتعلّق بتاريخ الصليب الذي وسم به الشرع الاسلامي جبين المسيحيين مدة عدة قرون ، لإقرار الذلة والصغار عليهم « فتدعوهم ذلّتهم الى ان يسلموا فيدفعوا الذلة عن انفسهم بالاسلام »[1] .

١ — الالقاب الصليبية

لا حاجة الى القول ان الصليب اشهر سمات النصارى حيثما وجدوا ، واعلقها نسبة اليهم لاختصاصه بهم دون سواهم ، بخلاف الزنّار والعمامة والغيار ، لاشتراك اهل الذمة فيها على السواء . ولذلك كان الدين المسيحي يعرف عند الكتاب والمنشئين « بدين الصليب » ، ويوصف به في المُدَن التي كانت تُعقد بين دولة الايوبيين والممالك مثلاً والافرنج ، كما كان النصارى يُنعتون عندهم بنعوت : « اتباع الصليب » و« عبّاد الصليب » و« عبدة الصلبان » ، لاعتقادهم ان الصليب وثنٌ يعبد كما تعبد الاوثان ، تباعاً للحديث القائل لعدي بن حاتم ، وقد قدم وفي عنقه صليب ذهب « ألقِ عنك هذا الوثن . »[2] وعلى هذا الرأي كتب

(١) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله لابي يعلى الفرّا ، مخطوط عندنا .

(٢) لسان العرب ١٧ : ٢٢٤

اوزير ابو عامر بن شهيد ، من رجال الاندلس ، في فصل له « بلوكك عاكف على الوطن عكوف الراهب على الوثن . »[1]

ومن مصطلحات كتّاب الانشاء في الدواوين السلطانية تلقيب النصارى ايضاً بالطائفة الصليبية ، وتخصيص بطريرك الروم الملكيين بلقب « كبير الطائفة الصليبية » ، كما عُرف به ايضاً متملك الارمن في كيليكية وصاحب دنالة . واطلقوا ايضاً اوصاف « جمال الطائفة الصليبية » و « ذخر الملة الصليبية » و « كنز الطائفة الصليبية » على دوج البندقية ، وملك الروم في القسطنطينية ، وملك الفرنج .

وربما أُشير بالصلبان الى الروم البيزنطيين . وفي سنة ٤٦١/١٠٦٩ جمع قطبان[2] انطاكية ودوقسها جموعاً كثيرة وطلع الى حصن اسفونا . . وبلغ الخبر الى الامير عزّ الدولة محمود بن نصر بن صالح . . . فسار في الوقت . واجتمع عليه خلق عظيم . . . فحاصره سبعة ايام وفتحه وقتل جميع رجاله . . . وفي ذلك يقول ابو محمد الحفاجي :

ان اظهرت لملاك انطاكيّة حربا فقد ضحكت على قطباناها
لما اطلّ له لواؤك خافقاً عرفت وجوه الذل في سلباناها[3]

٢ ــ صليب الصليوت

اعتاد المؤرخون ان يطلقوا هذا الاسم على الصليب الاعظم الذي كان الفرنج يحملونه امامهم في الحروب الصليبية وقد وهم الذهبي وغيره من مؤرخي اخبار الايوبيين فعنوا به الصليب الذي كان منصوباً على الصخرة في بيت المقدس ، واستولى عليه صلاح الدين الايوبي ، وارسل به الى بغداد ، فقال بتاريخ سنة ٥٨٥/١١٨٩ :

« في ربيع الاول وصل القاسم ابن الشهرزوري رسولاً من السلطان صلاح الدين وصحبته صليب الصليوت الذي تزعم النصارى ان عيسى عليه السلام صُلب عليه فألقي بين يدي عتبة النوبي فبقي اياما »[4]

---

١) الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام ١ : ١٦٦

٢) القطبان لفظة رومية xxxxxx يراد بها القائد والحاكم

٣) زبدة الحلب لابن العديم ، ١٩٦٦ خزانة باريس ، ٤٠ - ٨٥

٤) تاريخ الاسلام ، خزانة اكسفرد *Laud. Or.* 304 f° 162

وروى ابن ابي شامة مثل هذا الخبر عن ابن القادسي وعقب عليه فقال:

« قدم ابن الشهرزوري (بغداد) ومعه صليب الصليوت الذي تعظمه النصارى فدفن تحت باب النوبي الشريف يتبين منه شيء قليل وكان من نحاس وقد طلي بالذهب فجعل يدار بالارحل ويبصق الناس عليه وذلك في سادس عشر ربيع الآخر . كذا قال « صليب الصليوت » وقد نص العماد في البرق على انه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذا غير ذاك »[1]

ونقل مثل ذلك ابن كثير فقال :

« سنة ٥٨٥ / ١١٨٩ قدم من جهة الخليفة رسل الى السلطان يهنئونه بولاية العهد لابي نصر الملقب بالظاهر ابن الخليفة الناصر . . . ثم جهز السلطان مع الرسل تحفاً كثيرة وهدايا سنية وارسل اسارى من الفرنج على هيئتهم في حال حربهم وارسل صليب الصليوت فدفن تحت عتبة باب النوبي من دار الخليفة فكان بالاقدام يداس بعدما كان يعظم ويباس والصحيح ان هذا الصليب كان منصوباً على الصخرة وكان من نحاس مطلياً بالذهب فحفه الله ان اسفل المتنب »[2]

وكان صلاح الدين يستولي على الصليب في وقعة حطين المشهورة سنة ١١٨٧/٥٨٣.

« وهو الذي يزعمون انه صلب عليه المصلوب وقد غلفوه بالذهب والجواهر النفيسة ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الاسلام واهله . . . حتى ذكر ان بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين من الفرنج قد ربطهم بطنب خيمة وباع بعضهم اسيراً بنعل ليلبسها في رجله »[3]

« ثم ارسل السلطان برؤوس اعيان الفرنج (من الاسارى) وصليب الصليوت صحبة القاضي ابن ابي عصرون الى دمشق ليودعوا في قلعتها فدخل الصليب منكوساً وكان يوماً مشهوداً »[4]

واختلفوا في تاريخ حضور الصليب من القدس فروى المقريزي انه وصل في سابع عشري ربيع الاول سنة ٥٩٠ = ١١٩٤[5] ولكن ابن شداد روى انه في سنة ١١٩٢/٥٨٨ اي قبل ثلاث سنوات.

« وصل رسول من قسطنطينية الكبرى . وكانت رسالته تشتمل على مطالب منها صليب الصليوت . وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته وقيل ان الصليب قد بذل فيه ملك الكرج مئتي الف دينار فلم يجب الى ذلك »[6]

---

١) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ٢ : ١٣٩

٢) البداية والنهاية ١٢ : ٣٢١-٣٢٢

٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ : ١٢

٤) النوادر السلطانية لابن شداد ٢٠٣

واشار الى هذا الرفض العماد الاصبهاني فقال :

« أعيد صليب الصلبوت الى الخزانة لا للاعزاز بل للاهانة فان غيظ الكفار بحفظنا الصليب شديد والمصاب به عندهم على مر الجديدين جديد وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا وانفذوا بعد رسول رسولا فما وجدوا قبولا ولا صادفوا سولا »[1]

وبقي الصليب بدمشق الى ان استرجع الفرنج عكا .

« فراسل السلطان ملوك الفرنج في خلاص من بايديهم من الاسارى فطلبوا منه عدتهم من اسراهم وماتة الف دينار وصليب الصلبوت ان كان باقياً وارسل فاحضر المال والصليب ولم يات له من الاسارى الا شرذمة اسير فطلب الفرنج منه ان يريهم الصليب من بعيد فلما رفع سجدوا له وقذفوا انفسهم الى الارض ومشوا يطلبون منه مما احضره من المال والاسارى وامتنع . . فلم يرسل اليهم شيئاً وامر برد الاسارى الى اهليهم بدمشق ورد الصليب الى دمشق مهاناً »[2]

وكان رأس ملوك الفرنج وقتئذ ريشارد ملك الانكتار (الانكليز) فكتب الى صلاح الدين فيما رواه القاضي ابن شداد :

« القدس متعبّدنا ما نتزل عنه ولو لم يبقَ منا الا واحد واما انيلاد فيعاد لنا بما هو قاطع الاردن واما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمنّ به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب فكان من جواب السلطان عليه : اما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز ان نفرّط فيها الا لمصلحة راجحة الى الاسلام »[3]

ومن الغريب ان ابن كثير بعد ان استدرك ما استدركه ونقل ما سبق من اخبار الصليب ذيّل كل ما خطّه قلمه قبلاً ونسب الى الملك الافضل سنة ١١٩٤/٥٩٠ ما كان اثبته لوالده صلاح الدين سنة ١١٨٩/٥٨٥ فقال :

« سنة ٥٩٠ لما استقرّ الملك الافضل بن صلاح الدين مكان ابيه بدمشق بعث هدايا سنية الى باب الخليفة الناصر . . . منها صليب الصلبوت الذي استلبه ابوه من الفرنج يوم حطين وفيه من الذهب ما يزيد على عشرين رطلاً مرصعاً بالجواهر النفيسة واربع جواري من بنات الملوك »[4]

وقد تقدم ان ملك الكرج بذل في تسليم الصليب له مئتي الف دينار . فكيف يُعقل ان يزهد الافضل بمثل هذا المال الجسيم ، ويهدي الصليب عفواً

١) الفتح القسي ٣ : ٢٧١-٢٧٣
٢) البداية والنهاية ١٢ : ٣٤٤-٣٤٥
٣) النوادر السلطانية ١٨٧
٤) البداية والنهاية ١٣ : ٨

للخليفة في بغداد . وقد بحثنا كثيراً لنجد ذكراً له آخر في روايات المؤرخين الأوربيين فلم نقف الا على قول المقريزي :

« سنة ٥٩٠ / ١١٩٤ م) قدم رسول متملك القسطنطينية يطلب صليب الصليوت فأحضر من القدس وكان مرصعاً بالجوهر وسُلِّم اليه على ان يعاد ثم حمل من الفرنج وتوجه الامير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة بذلك »[1]

ولا حاجة الى التنبيه على ما بين قول ابن كثير وقول المقريزي من التناقض والبعد عن الواقع لاستحالة ان يكون الصليب سُلِّم لرسول الروم او بعث به الى بغداد .

٣ ــ الصليب في الشروط العمرية

في الشروط التي اوجبها الشرع على الذميين ، واطلق عليها الفقهاء اسم « العمرية » ليوهموا انها من وضع الامام عمر بن الخطاب ، ذكر الصليب والمنع من اظهاره في الاسلام . ولكنا جهدنا كثيراً ، وأطلنا البحث والمراجعة لنجد في آثار الصدر الاول من الخلافتين العمرية والاموية اشارة الى هذه الشروط بنصها المعروف اليوم ، فذهبت اتعابنا ادراج الرياح . والارجح انها أُحدثت في زمن متأخر ، ونجمت كالكمأة بغير اصل ثابت . ولم يرد لمجموعها حسبما بلغنا بلسان عمر اقل تسمية لها في كتاب « فتوح البلدان » للبلاذري في القرن الثالث للهجرة ، او في كتاب « الخراج » في القرن الثاني للقاضي ابي يوسف يعقوب ، الذي جمعه لهرون الرشيد . وقد اشار فيه القاضي ابو يوسف يعقوب على الخليفة ان يُترك النصارى « يسكنون في امصار المسلمين واسواقهم . . . ولا يظهرون الصلبان في الامصار »[2] . ولكنه اقرَّ قبل ذلك في كتابه المذكور ان خالد ابن الوليد « كان مرّ ببلاد عانات فخرج اليه بطريقها فطلب الصلح فصالحه واعطاه ما اراد على ان لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى ان[3] لا يضربوا نواقيسهم في اي ساعة شاؤوا من ليل او نهار الا في اوقات الصلوات وعلى ان يخرجوا الصلبان في ايام عيدهم . . . فصالحه اهل النقيب والكوائل على مثل

١) السلوك ١ : ١٢٠

٢) كتاب الخراج ، طبعة القاهرة ١٣٠٢ ، ص ١٥٢

٣) في الاصل المطبوع « ان يضربوا نواقيسهم » والمعنى يقتضي « ان لا يضربوا »

ما صالحه عليه اهل عانات . . . ثم مضى حتى اتى الى بلاد قرقيسيا . فاغار على ما حولها . . . ثم انهم بعثوا يطلبون الصلح فاجابهم الى ذلك واعطاهم مثل ما اعطى اهل عانات على ان لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى ان لا يضربوا نواقيسهم الا في اوقات الصلوات ويخرجوا صلبانهم في يوم عيدهم فاعطاهم ذلك وكتب بينه وبينهم الكتاب . . . ولم يردّ ذلك الصلح على خالد ابو بكر ولا رده بعد ابي بكر عمر ولا عثمان ولا علي »[1]

وروى القاضي ابو يوسف ايضاً ان عمر بن الخطاب كتب الى عبيدة وهو بالشام:

واما اخراج الصلبان في ايام عيدهم فلا تمنعهم من ذلك خارج المدينة بلا رايات ولا بنود على ما طلبوا منك يوماً في السنة فاما داخل البلد بين المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان فاذن لهم ابو عبيدة في يوم من السنة وهو يوم عيدهم الذي في صومهم (الفصح) فاما في غير ذلك اليوم فلم يكونوا يخرجون صلبانهم »[2]

وسيمرّ بنا في ما يأتي ان الصليب كان يُخرج وتُنشر راياته ليس في عيد الفصح فقط ، بل في عيد الشعانين ايضاً ، وغيره من الاعياد والمهرجانات والاحتفالات ، وفي المآتم والجنائز ، في مشهد من رجال الدولة وقبول منهم . وهو ما يدعو الى الشكّ في رواية القاضي ابي يوسف يعقوب المتأخرة . وقد سكت البلاذري بعده في القرن الثالث عن اظهار الصليب حتى في يوم الفصح وزعم « ان عياض بن غنم اعطى اهل الرقة يوم دخلها اماناً لانفسهم واموالهم وكنائسهم . . . على ان لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً »[3] فكانت اوامر الشرع في حقّ الصليب تزيد ضيقاً بعد اتساعها ، كلما زاد الوقت تأخرًا ، وتأت المسافة بين الخلافة العمرية في اوائل الفتح والخلافة العباسية بعد استيلاء الاعاجم عليها ، وكثرة من قام فيها من كذّبة الرواة ومختلقي الاحاديث لقلة النقد والامانة في النقل ، وميل الناس عموماً الى المبالغة والغلوّ طمعاً في الاغتفار والمباهاة .

وقد حاول بعض الفقهاء الاعتذار عن منع اظهار الصليب في الامصار ،

---

١) كتاب الخراج ، طبعة القاهرة ١٣٠٢ ، ص ٧٢

٢) كتاب الخراج ١٦٨-١٦٩

٣) فتوح البلدان ، طبعة اوربة ، ١٧٣

وليس فيه اقل معاضة للاسلام ، فزعم ابو يعلى الفرّاء ، في اوائل القرن الخامس ، ان اهل الحيرة كتبوا الى عبد الرحمن بن غنم في جملة شروط اشترطوها على انفسهم : « لا نضرب بنواقيسنا الا ضرباً خفيفاً في جوف كنائسنا ولا نظهر عليها صليباً . ولا نخرج صليباً ولا كتاباً في سوق المسلمين » وعلّل الفراء هذا المنع « بان في اظهار الصليب والكتاب تكذيباً لرسول الله (صلعم) فلم يجز اظهاره في اسواق المسلمين »[1] ولا يخفى على القارئ اللبيب ضعف هذا التعليل لان ليس في اظهار الصليب وتعظيمه ولا في تشييع الانجيل اقل ايماء الى الرسول او تحجرًا فيه على قيام نبي بعد المسيح كما في القول المروي عن محمد : « لا نبي بعدي » فكيف يصح ان يُعزى الى الصليب والانجيل تكذيب الاسلام وهو متأخر عن زمانهما ستة قرون ؟ بل أحر ان يكون في الانجيل تصديق لدعوة الرسول ، وفي موت المسيح على الصليب تمهيد لها ، وهم يعتقدون ان الفارقليط المذكور في الكتاب المقدس انما يُعنى بـه رسول الاسلام ، فاظهار الانجيل اذن وتشييع الصليب له يجب ان يعتبر عندهم كالمناداة بذهاب المسيح ومجيء الفارقليط محمد من بعده ، ومن ثم يكون اخراج الصليب والكتاب تصديقاً للرسول لا تكذيباً له في الظاهر كما زعم الفراء.

واذا اجلنا النظر في اخبار ايام الامام عمر بن الخطاب ، وما تبعها الى ايام الخلفاء المروانيين ، وتدبرنا ما رواه لنا التاريخ من الحوادث والانباء ، يتضح لنا بطلان ما نُسب الى عمر من التضييق على اتباع الصليب ، ومنع اظهاره في الملإ وحسبنا ان نذكر في الاستشهاد على ما كان في عهده من التسامح والقصد في السياسة والعدل في الرعية ، ما نقله ابو الفرج الاصبهاني عن موت والدة الحارث بن ابي ربيعة اخي الشاعر المشهور عمر بن ابي ربيعة قال :

« لما ماتت حضر الاشراف جنازتها وذلك في عهد عمر بن الخطاب فسمع الحارث من النساء نعيًا فسأل عن الخبر فعُرّف انها ماتت نصرانية وانه وجد الصليب في عنقها وكانت تكتمه ذلك فخرج الى الناس فقال : « انصرفوا يرحمكم الله فان لهاهنا دينًا هو اولى بها منا ومنكم » فاستحسن ذلك منه وعجب الناس من قوله »[2]

---

١) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ، مخطوط في خزانتنا ، ص ٩

٢) الاغاني ، طبعة الدار ، ١ : ٦٦-٦٧

ولا ينبي على احد ما في فعل الحارث وإجماع الاشراف على « استحسانه » من الدلالة على رجاحة الاخلاق وطيبها في ايام ابن الخطاب ، وسعة النفوس والمذاهب ، وقلة العداء للنصرانية كما بدأ في عهد العباسيين . ومعلوم ان جنائز النصارى يصحبها دائماً « اظهار الصليب والكتاب » . فكيف يتفق هذا الاظهار بما عُزي غلطاً الى عمر من الحجر على الصليب وإقصاء النصارى من ارض الحجاز؟ واى دليل اكبر على وجود كهنة النصارى في جوار الحارث من قوله : « هذا اهل دين هم اولى بها » ولذلك استدعاهم في الحال وردّ لهم حقّ الصلاة عليها وتشييع جنازتها ، فاين بعد هذا ما صوّره لنا المتأخرون من الرواة والمحدثين والمؤرخين من ذلّ النصرانية في عهد الامام عمر ، والتضييق على اشياعها حتى في خدمة السراويل ونوع الخفّ وفرق الشعر وغير ذلك من الإهانات والسخف؟ واذا صح قط اطلاق لفظ « الذمة » على عهد النصارى ، وهو ما يدعى اليوم « حماية » ، فلا ريب ان اصحّ عصر يستحق ان يسمى « ذمة » هو عصر الامام عمر ، ثاني الخلفاء الراشدين ، وعصر معاوية وابنه يزيد من الامويين ، لحسن نظرهم الى النصارى ورفقهم بهم وحمايتهم . وكان عمر يعلم كثرة المسيحيين في ولايته وانتشارهم في كل انحاء مملكته ، وزيادة عددهم على المسلمين في الشام ومصر والعراق . ولا يجهل ايضاً ما تقدم للعراقية منهم وللناطرة من حسن قبول الجيوش الاسلامية وامدادهم بالميرة وتهيئة اسباب فتح المدن لهم خيانة منهم ، وانتقاماً من الروم لسابق اضطهادهم لهم ، حتى حكى بعض الرواة ان اهل حماة وشيزر « خرجوا يكفّرون ومعهم المقلسون »[1] اي المغنون والضاربون بالدفّ . وكان لا ينبي عليه خصوصاً حاجته اليهم في الصناعة والزراعة والتجارة والكتابة ، لاشتغال جنوده بالمغازي والفتوحات ، وبعدهم عن اعمال الحضارة ، فكيف يناصب العداوة اعواناً نظيرهم كان منهم موالي امته ، وعمال دواوينه ، وعالة جنوده ، وملّاحو سفنه ، واكّارو مملكته ، وانصاره في السياسة ، لا يخشى منهم معصية ولا تخوّفاً . ولولا ان معظم اخبار القرن الاول قد ضاعت او تنوسيت لاهمال تدوينها ، لوجدنا فيها عدة شهادات وحجج ناطقة بحسن جوار

١) فتوح البلدان للبلاذري ١ : ١٣١

الاسلام للنصرانية بعد الفتح ، ورفق الخلفاء الاولين برعاياهم وموالبهم من اهل الذمة ، خلافاً لما زعمه الرواة والفقهاء المتأخرون في الخلافة العباسية .

ومع ما قيل من منع اظهار الصليب في الاسواق لا نظن ان النصارى كفّوا عن عاداتهم بالاحتفال ببعض الاعياد والفصح باشهار الصلبان والطواف بها خارج الكنائس . ولابي نواس من قصيدة يستحلف بها عبد يشوع بن ماسرجس :

عـارت مريم ويوم فصح وبالفرقان بالقس العتيق
وبالصلبان ترفعها رماح لاحبن توهب بالحريق[1]

وللشرواني في وصف دير الحريق بالحيرة :

حرجنا في ثمانين النصارى وشبّمنا صليب الخنابيق[2]

وللعمري في وصف دير الاسكون من ديارات دير الحيرة « اذا كان يوم الثمانين اتوه من كل ناحية مع شمامستهم بصُلبهم واعلامهم »[3]

ولابي الهيذام في وصف باعوث حرّان :

سقيًا لحران انـه بلد اصبح للّهو وهو مضارُ
في يوم باعوثهم، وقد نشروا الصلبان ، والمسلمون نظّارُ[4]

ولابي العلاء المعري :

هل قبلت من ناصح أمّة تندو الى الفصح بصلباتها
كنائس تجمعها وصلة بين غوانيها وشباتها[5]

« وكان رسم النصارى في بيت المقدس جارياً في كل عام بحمل شجرة من شجر الزيتون في عيد الثمانين من الكنيسة المعروفة بالاعازرية الى كنيسة القيامة وبينهما مسافة بعيدة وان يُشقّ بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات حاملين الصلبان مشهوراً[6]

١) ديوانه ، ١٨٣١ باريس ، ٨٣
٢) مسالك الابصار للعمري ٢١٦
٣) مسالك الابصار ٢١٢
٤) ارشاد الاريب ٦ : ٢٠٩
٥) اللزوميات ، طبعة الهند ، ٢٨
٦) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ١٩٤

« وكان رسم الملكية خلاصة في تلك الليلة (ليلة الخميس اي العطاس) يخرجون من الكنيسة القائوليكي التي بقصر الشمع المعروفة بكنيسة ميكائيل في جمع متوافر بالقراءة الملحنة والتقمات الملتة والصلبان المشهورة ووقيد الشمع الى شاطىء النيل بباعوث . . . وحضرهم الحاكم في كثير من الاعوام متنكرًا وشاهدهم »[1]

« وفي سنة ٤١٥ (١٠٢٤ م) نزل امير المؤمنين الظاهر لاعزاز دين الله ابن الحاكم بقصر جده العزيز بالله بمصر لنظر العطاس ومعه الحُرَّم . . وامر بان توقد المشاعل والنار في الليل وكان وقيدًا كثيرًا وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران ومشوا على ذلك طويلا الى ان غطسوا »[2]

« وفي سنة ٤٩٦ (١١٠٣ م) طمع الفرنج في بلاد حلب . . فخافهم الملك رضوان بن تاج الدولة تتش لعجزه عن دفعهم عن البلاد ومنعهم فاصطر حالى مصالحتهم ؛ فبذلوا عليه اشياء كثيرة من جملتها . . . ان يضع صليبًا على منارة المسجد الجامع فاحتاجم الى ذلك وانكر عليه القاضي ابو الحسن بن يحيى الخشاب وكان بيده زمام البلد وضع الصليب على منارة الجامع وقبح عليه ذلك فراجع الفرنج في امر الصليب الى ان اذنوا له في وضعه على الكنيسة العظمى التي بنتها هيلانة ام قسطنطين فلم يزل عليها الى ان حاصرت الفرنج حلب سنة ثمان عشرة وخمسمائة ونشروا ما حولها من القبور فاخذ القاضي ابن الخشاب المذكور اربع كتاتيش وصيرها مساجد من جملتها الكنيسة العظمى ورمى بالصليب »[3]

« وفي سنة ٩٥١ للشهداء (١٢٣٦) تقررت البطركية للقسيس داود بن لقلق . . . وحضر اليه من القاهرة ومصر وما حولها امم لا تحصى واجتمع من الامم الغريبة المسلمين واليهود خلق عظيم حتى كانوا ممتدين ملء الطريق على الدكاكين والفُرج والاسطحة من ميكائيل الى المطفة ورفعت الصلبان فوقه على الميدان . . . ثم بعد ذلك اجتمع جماعة من المسلمين وانكروا ما عمل واستشنعوا حمل الصلبان على رؤوس الاشهاد وسط النهار في الاسواق وتحدثوا في هذا واكثروا »[4]

وربما كان اظهار الصليب والانجيل بالشموع الموقدة والقراءات الملحنة يُحتفل به في مشهد من الخلفاء والملوك في حضرتهم وباستدعاء منهم وفي سنة ١١٤٠/٥٣٥ مات بهرام الارمني ، وزير الخليفة الحافظ ، وكان يشاوره في تدبير الدولة فحزن عليه حزنًا كثيرًا وامر باغلاق الدواوين واستدعى بطريرك الملكية ، وامره بتجهيزه فأُخرج عند صلاة الظهر في تابوت عليه الديباج وحوله النصارى يبخّرون بالبان والسندروس والعود وخرج الناس كلهم مشاة بحيث

١) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ١٩٦-١٩٧

٢) الخطط للمقريزي ١ : ٤٩٥

٣) الاعلاق الخطيرة لابن شداد ، ٧٣٠ خزانة الفاتيكان ، ٢١-٢٢

٤) بحر البطاركة لابن المقفع ، ٣٠٢ باريس ، ٢١٦-٢٧

لم يتأخر احد من اعيان الوقت عن جنازته وخرج الحافظ راكباً بغلة خلف التابوت . . . فما زال الناس سائرين والاقسّة يملئون بقراءة الانجيل والحافظ على حالته الى دير الخندق بظاهر القاهرة فنزل الحافظ عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديداً »[1]

وفي سنة ١١٨٢ ، في شهر تموز ، استدعى السلطان قلج ارسلان الى حضرته في ملطية بطريرك اليعاقبة ميخائيل المؤرخ ، الذي ترجم الاب شابو في باريس كتابه من السريانية الى الفرنسية ، ووصف البطريرك فيه لقاء السلطان له وقال :

« خرج السلطان نفسه لاستقبالنا عند الصباح في طائفة كبيرة من جنده داخل المدينة وكان ارسل امامه رسولاً ينهي الينا ان دخولنا يجب ان يكون طبقاً الشريعة المسيحية اي بالصليب والانجيل فاكثر النصارى من الشموع والصلوات وحين دنوت من السلطان امرني ان لا اترجل وضمني بين ذراعيه ولما بدأت خطابي له والترجمان ينقل له اصاخ الي بسمعه بغاية السرور لاكثاري الامثال المستشهد بها من الكتاب ومن الزمان وادمجت في خطابي موعظة اثرت فيه جداً حتى سالت دموعه فحمد النصارى الله كثيراً وشكروه جداً لما رأوا الصليب المعظم مرفوعاً منشوراً فوق السلطان والحضور المسلمين »[2]

وربما اثار إشهار الصلبان في الجنائز بعض المشاغب والشرور ومن اشهر هذه الفتن ما حدث في بغداد سنة ١٠١٣/٤٠٣ توفيت فيها بنت ابي نوح الاهوازي النصراني زوجة ابي نصر بن اسرائيل كاتب الناصح ابي الهيجاء الجرجاني .

« وأُخرجت جنازتها ظاهرًا ومعها النوائح والطبول والزمور والصلبان والرهبان والشموع فقام رجل هاشمي من الحصريين محله عند مشهد ابي حنيفة فرجم الجنازة ولعنها فحمد بعض غلمان الناصح الذين كانوا مع الجنازة فضربه بدبوس فشجّه وجرت دماؤه واجتمع الناس وهرب النصارى بالجنازة الى بيعة بدار الروم وتبعهم المسلمون وضبوا البيعة واكثر دور النصارى المجاورة لها وهرب ابن اسرائيل الى داره فهجموا عليه وهُرب به الى دار الناصح وثارت الفتنة بين العامة وغلمان الناصح وغلقت الاسواق والجوامع ورفعت المصاحف على القصب وقصد الناس دار الخليفة على سبيل الاستغاثة فارسل الخليفة ينكر على الناصح ما جرى وبالتماس ابن اسرائيل وتسليمه فامتنع الناصح من ذلك فغاظ الخليفة وتقدم باصلاح الطيار ليخرج من البلد وجمع الهاشميين الى داره وجاءت العامة الى دار الناصح فدفعهم

---

١) اخبار مصر لابن ميسّر ٨٤

٢) Chabot, *Histoire du Patriarche Michel*. III p. 383-391

غلمانه ومن كان فيها من الاتراك وقتل رجل قيل انه علوي فزادت الشناعة وتفاقم الامر وامتنع الناس من صلاة الجمعة وصليت العامة جملة من النصارى وتردّدت الرسالة الى الناصح حتى حمل ابن اسرائيل فحبس والزم اهل الذمة الشيار وأُخرج ابن اسرائيل بعد ايام وانبسط النصارى بعدما انقبضوا وامنوا بعد ما خافوا ».[1]

٤ ــ الاحكام السلطانية بعدم اظهار الصليب في الاعياد

كان المتوكل اول من أصلى النصارى نيران الاضطهاد ، واصدر امرًا قاطعًا تفنّن فيه باذلالهم والتضييق عليهم . ومن جملة نواهيه واوامره سنة ٢٣٥ (٨٤٩م) ان لا يظهروا في شعانينهم صليبًا ، بعد ان كانت اعياد الشعانين اعيادًا شعبيّة لكلّ من النصارى والمسلمين ، تخفق فيها الوية الصلبان منصوبة فوق الاعواد ، وتدري فيها انغام المصلين . وربما حضرها احيانًا بعض الخلفاء كالمأمون فضلًا عن رجال الدولة ، وتتقاطر لمشاهدتها الالوف من المتفرجين من الرجال والنساء . وفي اشعار الشعراء اصداء اوصاف هذه المهرجانات ونهى المتوكل ايضًا النصارى ان يشعلوا في الطريق [2] ولم يفهم المقريزي معنى هذه اللفظة فقرأها « ان لايشعلوا في الطريق نارًا »[3] والكلمة سريانية من فعل ܫܥܠ على توسع فيه ومعناها القراءة . وقد وردت في الشعر . قال ابو نواس يتشوق الى عيد الشعانين

وايام الشعانين الغدايا وشعلة النصارى في الطريق [4]

وقال ابو الفرج الاصبهاني : انشدني جحظة لنفسه من ابيات :

اذا نطق القسيس بعد سكوته وشعل مطران ولاح قنديل[5]

« وفي سنة ٣٩٤ (١٠٠٣ — ١٠٠٤ م) منع الحاكم النصارى من اظهار زينة الكنائس في عيد الشعانين وتشدّد عليهم وضرب جماعة منهم »[6] ، يريد

١) مرآة الزمان بريتش موزيوم Or. 4619 f°. 199-200

٢) الكامل لابن الاثير ٧ : ١٧ ، والعبر لابن خلدون ٣ : ٢٧٥

٣) الخطط ٢ : ٤٩٤

٤) ديوانه ، ٦٨٣١ باريس ، ٨٣

٥) قطب السرور للرقيق القيرواني ، ٣٣٠٢ باريس ، ١٧٠

٦) الخطط ٢ : ٥٠٧

بزينة الكنائس ما فيها من صلبان واناجيل وشموع وسائر الذخائر .

« وفي سنة ٤٠٢ (١٠١١م) منع الحاكم النصارى من الاجتماع على عمل عيد الصليب وان لا يظهروا زينتهم فيه ولا يقربوا كنائسهم وان يمنعوا منها ». قال المقريزي : « ثم بطل ذلك حتى لم يكد يعرف اليوم بديار مصر البتة »[1] وزاد يحيى بن سعيد الانطاكي : « امر الا يظهر صليب ولا تقع عليه عين ولا يضرب ناقوس فقلعت الصلبان من الكنائس وطمس آثارها من ظاهر البيع والكنائس والهياكل »[2]

وفي سنة ٧٥٥ (١٣٥٤م) صدر مرسوم الملك الصالح بن الناصر بالزام اهل الذمة بالشروط العمرية ، ومنها للنصارى الا يخرجوا شعانين[3] ، اي الصليب والزينة في الاعياد .

٥ ــ رفع الصليب ازاء رفع القرآن في الفتن بين السنّة والشيعة

كانت بغداد موطن الفتن والثورات بين السنّة والشيعة ، لا تخلو منها محلة من محلاتها في زمن من الازمان . وكانت محلة الكرخ معسكر الشيعة ، اول ما تشبّ فيها نيران القتال وتسيل في اسواقها دماء الثوّار . وقد سكت المؤرخون عن كثير من اسبابها واسرارها ، واغضوا الطرف عن النظر الى ما كان يجري فيها من خوارق وعظائم ، تقيّة منهم وتحرجاً . ولذلك فاتنا اهمّ ما كان يحدث فيها من انواع الشغب وضروب التنازع ، وما كانت تجرّه من الكبائر والفواحش في القول والعمل . واغرب ما هنالك ان بعض الغلاة من المشيّعين كانوا ، اذا حمي الوطيس وبلغ الغيظ منهم مبلغه ، يعمدون كعادة الاحزاب قديماً الى رفع مصاحف القرآن على الرماح . فكانت الفئة المعادية تبادر حالا الى مقابلة هذه المصاحف بنصب الصلبان على القصب ، وربما نادوا

---

١) الخطط ١ : ٢٦٧

٢) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ٢٠٢

٣) صبح الاعشى ١٣ : ٢٨٤

« المسيح يامنصور » في بغداد ، و« باسيل يامنصور » في حلب ، اي باسم ملك الروم ، وعلقوا الصلبان في حلوقهم . ومع ان كلا من الفريقين كان متسماً بالاسلام عريق النسب فيه ، فقد كان يستدرجه فائر الغضب الى شتم النبي وازواجه وصحابته ، او يدفعه اليأس والضعف الى الشك في صدق الدين حتى يطيب له الانتقال عن الاسلام . ولا يخفى ما في كل هذا الافراط والتفريط من الدلالة على ما كان في ذلك العصر من اخلاق واحقاد واميال ونزعات يجدر بالمؤرخ اليوم ان يتزلها منزلتها من الخطر والقيمة ، في تعريف ماضي الاسلام في الخلافتين العباسية والفاطمية . وقد رأينا ان نجمع هنا كلّ ما وقفنا عليه قديماً وحديثاً من هذه الشهادات النادرة التي نقلها لنا شجعاء المؤرخين ، ليتدبرها القارئ بعين الاجلال والاعتبار :

وفي سنة ٤١٦ للهجرة (١٠٢٥ م) ارسل المقارنة الذين في قلعة حلب يسألون الصلح من سالم بن مستفاد والي حلب من قِبَل صالح بن مرداس « والتمسوا منه اشياء فلم يرَ اجابتهم اليها فلما كان آخر نهار ذلك اليوم نصبوا الصلبان على سور القلعة وصاحوا « باسيل يا منصور » وحطوا الصلبان بعد اشهارها وبقوا يصيحون لبلتهم الى الغداة واعادوا نصب الصلبان في صباح يومهم ولعنوا الظاهر (الخليفة الفاطمي بمصر) ودعوا لباسيل الملك وبقيت الصلبان منصوبة على حالها الى يوم الجمعة ثالث يوم اشهروها فيه واضافوا اليها صليباً آخر كبيراً »[1]

وذكر ابن العديم هذه الواقعة في اخبار سنة ٤١٥ واضاف الى ذلك انهم بعد ان نصبوا الصلبان ثلاثة ايام نقروا الناقوس ايضاً[2]

وفي سنة ٤٢١ للهجرة (١٠٣٠ م) « كان الخراب قد شمل بغداد لضعف الهيبة وتتابع المجاعة فاجتمع الهاشميون في شوال بجامع المنصور ورفعوا المصاحف واستنفروا الناس فاجتمع اليهم الفقهاء وخلق من العامية الرافضة وضجوا ان يُمنعوا من الشرك فعمدت الترك . . . ورفعوا صليباً على رمح وتراشق الفريقان بالنشاب والآجر ثم تحاجزوا »[3]

ونقل ابن الجوزي هذا الخبر فقال :

« سنة ٤٢١ في سادس شوال جرت منازعة بين احد الاتراك النازلين بباب البصرة وبعض

١) تاريخ الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ٣٤٧

٢) زبدة الحلب لابن العديم ، ١٦٦٦ خزانة باريس ، ٦١

٣) الاعلام بتاريخ الاسلام لمحمد بن الجزري ، مكتبة الاسكندرية رقم ٢٠٧٢ ، ص ٢٨٥

الهاشميين فاجتمع الهاشميون الى جامع المدينة ورفعوا المصاحف واستنفروا الناس فاجتمع لهم الفقهاء والعدد الكثير من الكرخ وغيرها وضجوا بالاستغاثة من الاتراك وسبهم فركب جماعة من الاتراك فلما رأوهم قد رفعوا اوراق القرآن على القصب رفعوا بازائهم قناة عليها صليب وترامى الفريقان بالنشاب والآجر وقتل من الآجر قوم ثم أصلحت الحال »[1]

وفي سنة ٤٨٢ (١٠٨٩ م) « في جمادى الاولى كثرت الفتن ببغداد بين اهل الكرخ وغيرها من المحال وثار اهل الكرخ وقصدوا شارع ابن ابي عوف ونهبوه وفي جملة ما نهبوا دار ابي الفضل بن خيرون المعدّل فقصد الديوان مستنفرًا ومعه الناس ورفع العامة الصلبان وهجموا على الوزير في حجرته واكثروا من الكلام الشنيع »[2]

وأرّخ صاحب مرآة الزمان هذا الحادث في شهر صفر وزاد في البيان فقال:

« في صفر سنة ٤٨٢ كانت فتنة عظيمة ببغداد بين السنّة والشيعة . . . فغلقت اسواق الكرخ ورفع اهلها المصاحف وقتل بينهم خلق كثير . . . ورفع العامة الصلبان على القصب ونادوا « المستنصر يا منصور » (اي باسم الخليفة الفاطمي) ونادت الطائفة الاخرى « المسيح يا منصور » وتفاقم امر الفتنة وقتل من الفريقين نحو من مائتين وسبّ اهل الكرخ اصحاب رسول الله وزوجاته وتعدوا الى سب رسول الله (صلعم) وكتب الخليفة الى صدقة بن مزيد بانفاذ جيش فبعث اليه بالعرب واتفقوا مع السنّة فنقضوا الدور واحرقوا المحالّ وحملوا الشعور وخيروا اماكن المفسدين من الفريقين فسكنت الفتنة »[3]

وزاد ابن الجوزي على سبطه قرأئي زيادات في غاية من الخطر والفائدة النادرة فقال:

« سنة ٤٨٢ في عشية تاسع عشر صفر كبس اهل باب البصرة الكرخيين فقتلوا رجلًا وجرحوا آخر فأغلقت اسواق الكرخ ورفعت المصاحف على القصب وما زالت الفتن تزيد وتنقص الى جمادى الاولى فنوبت نارها وقتل خلق كثير . . . وفي غد يوم القتال نهب اهل الكرخ شارع ابن ابي عوف وكان في جملة ما نهب دار ابي الفضل بن خيرون فقصد الديوان مستنفرًا ومعه الناس ورفع العامة الصلبان على القصب وضجوا على الوزير ابي شجاع في حجرته من الديوان . . . وعظمت الفتنة الجارية بين السنّة واهل الكرخ فقتل فيها نحو مائتي قتيل ودامت شهورًا من سنة اثنتين وثمانين واربعمائة . . . وكان الشباب قد احدثوا الشعور والجُمَم وحملوا السلاح وعملوا الدروع وسئلوا عن الفتيّ بالنشاب والنبل وسبّ اهل الكرخ الصحابة وازواج رسول الله على السطوح وارتفعوا الى سب النبي . . . وقد الحقني في مأتم النياحة يقولون : « هل رأيتم في الزمن الماضي مثل ما جرى على اهل السنّة في هذه

---

١) المنتظم ، طبعة حيدر اباد ، ٨ : ٥٠

٢) الكامل لابن الاثير ١٠ : ٦١

٣) مرآة الزمان ، خزانة اكسفرد Marsden 638 f° 9

الدولة ؟ طاب والله الانتقال عن الاسلام . لو كان ما نحن فيه حقاً لنصره الله » وحملوا الصلبان في حلوقهم ودعوا بشعار الرفض وقالوا : لا دين الا دين اهل الكفر »[1]

وهذا التفصيل والبيان من ابن الجوزي مفهم بالفوائد والاوصاف العزيزة المثال . ولا نذكر انه مرّ بنا ما يفوقها مغزى وتأويلاً . ولو كان ابن الجوزي ألهم تدوين كل وقائع السنّة والشيعة بمثل هذا الانتباه والاستقصاء ، لكان لنا من تاريخ الحياة الاجتماعية ببغداد ما يزول معه كل غموض وتمويه نراهما اليوم في حقيقة اخبار الاسلام في الخلافة العباسية .

وقد طالعنا كثيراً من اخبار مصر فلم نجد فيها ما يقرب مما كان يجري في حلب وبغداد لقلة الاحزاب الدينية فيها . وغاية ما عثرنا عليه من ذكر رفع الصلبان في الفتن ما رواه المقريزي في كتابه السلوك قال :

« في سنة ٧٢١ (١٣٢١ م) نفرت العامة بمصر فوجد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون نحو العشرين الفاً قد صبغوا خروقاً بالازرق والاصفر وعلقوا في الاترك صلباناً بيضاً ورفعوها على الجريد وصاحوا عليه صيحة واحدة : لا دين الا دين الاسلام نصر الله دين محمد بن عبدالله . يا ملك الناصر يا سلطان الاسلام أنصرنا على اهل الكفر ولا تنصر النصارى »[2]

وانما صبغوا الخرق بالازرق والاصفر لان هذين اللونين كانا شعار النصارى واليهود كما سيجيء .

٦ ــ تصوير المسلمين الصليب في السفن الحربية مخادعة للافرنج

كان الصليب يُعدّ شعار الكفر كما قال المقريزي ، في كلامه على النقود ، ومع ذلك لم يرَ صلاح الدين الايوبي اقلّ حرج في تقليده وتصويره في مراكب القتال مغالطةً واحتيالاً في جملة خُدع الحروب . ولما اراد سنة ٥٨٦/١١٩٠ إنفاذ المدد والميرة لاهل عكا في حصار الافرنج لهم . قال العماد الاصبهاني في فصل له حشد فيه اسجاعه ، وفضول جناساته ، وغرائب اوصافه ، وشاشته في التقعّر والتحذلق ، مشيراً الى بطسة وهي نوع من السفن في ذلك الوقت

١) المنتظم لابن الجوزي ٩ : ٤٧-٤٨

٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ١٧٢٦ باريس ، ٣٨٢

كانت أُخذت من الفرنج ونُبذت في ساحل بيروت وصُوِّر فيها الصلبان وقُلِّد زيّ الرهبان لايهام نصرانيتها:

« امر السلطان بترميمها وتشييدها وإخفاء البنية منها وتشييدها وأزيحت منها العلة ونُقلت اليها الغلة وملئت بالشحوم واللحوم وكل ما تدعو اليه الحاجة من المشروب والمطعوم وحمل فيها احمال الثياب والتقط ما جمع فيها بين القوة والقوت ورتبت فيها رجال مسلمون ونصارى من اهل بيروت وارادوا ان تتشبه بطُسّر الديو في البحر وان لا يتكشف الفرنج ما لها من السّتر فتصوروا رهبانا وصوروا صلبانا ومسحوا هاماتهم[1] ومسخوا احلامهم وغلّطوا[2] وتكوّفوا وتشبهوا بهم في كل نزّة لئلا يُتخوَّفوا وشدوا زنانير واصطحبوا حناجر وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين والى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين والقوم لجهلهم لا يشكّون انهم من اهلهم ونسوا الحادث وانسوا بالحديث وتصوروا الطيب بصورة الخبيث ولما حاذوا بها عكاء صوّبوها نحوها والريح نسوقها والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول: ما هذه طريقها وهي كالسهم النافذ قد سُدِّد فُوقها وقد غصت رقتها وهي تكاد تفوقها فدخلت الثغر وادخلت اليه كل خير وعجب الناس منها وما تم لها من حيلة في سير واجترأ بها البلد شهرا ووجدفيها لكل كسر جبرا فيا لها من لطيفة قضينا منها الارب ولم نقض منها العجب»[3]

٧ ــ الصليب تحفة وتجارة في الاسلام

كان لبعض رجال الدولة وامراء الملة واعيانها رأي جميل في الصليب وقبول حسن له، كآل سليمان بن وهب من وزراء الخلافة العباسية، فانهم كانوا يتبركون بوضعه في ثيابهم. ومما هو اجدر بالذكر والاعتبار ما كان يفعله صاحب حلب ابو تغلب بن حمدان، فقد رُوي عنه انه كان يتقرَّب الى ملك الروم باهدائه صلبان الذهب، يتقدَّم بصياغتها له، وعُدَّ ذلك من ذنوبه، كما جاء في نسخة كتاب كتبه ابو اسحاق الصابئ عن عز الدولة بن بويه الى المطيع لله.

١) يريد بمسح اللحى حلقها وازالتها وكان اطلاق اللحى حينئذٍ واعفاء الشاربين طيفة للحديث عاماً للمسلمين والنصارى في الشرق خلافاً للافرنج

٢) قوله غلطوا وتكوفوا اي وضعوا الكوفية على رؤوسهم ولبسوا الملوطة وهي نوع من الجباب جمع جُبَّة كانت تلبس في الشرق وفي الاندلس وهي من الرومية gabardine وتعرف في اسبانية باسم marlota وكانت ترى احياناً على نساء الفرنج وفي كتاب الروضتين لابي شامة في كلامه على حصار عكا «رُئيت امرأة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ثم قتلت» (٢: ١٨٦)

٣) الفتح القسّي في الفتح القدسي ٣٨٣-٣٨٤

عند فتحه الموصل وهزيمته ابي تغلب سنة ٣٦٣ (٩٧٣ - ٩٧٤م) قال: « لاطف طاغية الروم وهاداه... وكان في ما اتحفه به الخمر التي حظر الله عليه ان يشربها ويسقيها... وصلبان ذهب صاغها له وتقرب بها اليه تقرباً قد باعده الله فيه عن الاصابة والاصالة »[1]

وفي عكس ذلك كانت عادة ملوك الروم انفاذ الصليب لكل من عقدوا معه صلحاً وهدنة ولم ينقل عن احد من الملوك والامراء المسلمين انه ابى قبول الصليب بدعوى انه شعار الكفر. وممن أرسل اليهم الصليب نصر بن صالح، صاحب حلب، روى يحيى بن سعيد في اخبار سنة ٤٢١/١٠٣٠ ان نيقيطا قطبان انطاكية اصلح بين ملك الروم رومانس ونصر بن صالح وكتب بذلك وثيقة على نسختين وكتب ابن صالح خطه واشهد على نفسه في احداها لتكون في ديوان الملك ووقع الملك بخطه في النسخة الاخرى «وانفذ معها صليباً مرصعاً الى ابن صالح اماناً بالوفاء بالشرط »[2] ولما سأل اهل دمشق سنة ٣٦٣ (٩٧٤م) قيصر الروم المعروف بابن الشمشقيق (Jean Tzimicès) بإيمانهم وحسن الرأفة بهم، وكان قد ملك بعلبك واراد قصد دمشق، قال: « قد قبلت طاعتهم وامرت بايمانهم على نفوسهم واموالهم ورضيت منهم بالخراج وانفذ لهم صليباً بالامان »[3]

وممن كان يتّجر من المسلمين بالصلبان علي بن محمد بن يوسف نور الدين التوريزي « يقال انه دخل بلاد الفرنج بسبب تحصيل صليب عندهم بلغ امره ملك الحبشة فاحب رؤيته... ووشي به الى السلطان فامر والي القاهرة فقبض عليه فوجد معه امتعة من ملابس الفرنج وشيء من سلاح وناقوسان من ذهب وكتاب بالحبشية معرّب فكان فيه مراسلة من صاحب الحبشة يستدعي منه اشياء يصوغها له من صلبان ونواقيس ويحضّه على شراء مسمار من المسامير التي سُمّر بها المسيح بزعمهم فحبس... وحكم بقتله »[4]

---

١) صبح الاعشى ٦:٤٩٠-٤٩١

٢) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ٣٦

٣) ذيل التلانسي ١٣

٤) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي ٦:٣٨-٣٩

٨ ـ الصليب في الاعناق وعلى الصدور

لما انتزع العرب الشام ومصر من ايدي الروم ، وجدوا عادة تقلد الصلبان في النحور وعلى الصدور شاملة كل النصارى شعارًا لهم ، وعنوان ايمانهم ، فلم يتعرضوا لها ، وعدوها سمة لهم يميزونهم بها . ومن الابيات التي ذكر فيها ان الصليب سمة للنصراني قول محمد بن رزين المعروف بابي الشيص يصف خمرًا وساقيها :

يسعى بها تحيث عليه ، لدينه سمتان : زنار له ، وصليب[1]

واكثر ما كانت تشاهد الصلبان معلقة في اعناق الفتيان والفتيات . وفي الشعر اوصاف لها عديدة منها قول كشاجم في غزاله :

تبيك قامته ان قام يمزحها موشحًا بصليب صيغ من ذهب[2]

ونظيره قول ابي نواس :

قد اقام الصليب في الجيد إلفًا فهو يختاره على كل إلف[3]

وقول الخالدي في فتاة الدير :

كم فتاةٍ مثل المهاة سلبنا ها صليبًا من بين نحر وجيد[4]

وفي معناه قول عبدالله بن العباس :

كم لثمت الصليب في الجيد منها كهلال مكلل بنحور[5]

واما البالغون من الرجال فكانوا يتقلدون الصلبان على صدورهم . وفي كتاب وفادات العرب لابن سعد انَّ اكيدر ، صاحب دومة الجندل ، حين قدم به خالد كان عليه صليب من ذهب[6] . واشتهر الاخطل التغلبي بصليب له من ذهب في سلسلة ذهب بادية على صدره ، كان يدخل بها على الخلفاء والامراء

١) تباشير الشراب لابن المعتز ، ٣٢٩٩ باريس ، ٣٨

٢) ديوان كشاجم ، مخطوط في خزانة الدكتور سامي الدهان .

٣) ديوانه ؛ ٨٣٠٠ باريس ، ٣٥٣

٤) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٩

٥) الاغاني ١٧ : ١٣٩

٦) طبقات ابن سعد ٢٧

ويظهر في المحافل والاندية ، ويمشي احياناً المساجد ، ومن اجلها قيل له « ذو الصليب »[1] . واعظم من ذلك ان الجواري والوصائف اللواتي كنّ في قصور الخلفاء كن يتحلّين دائماً بصلبان الذهب تبرّكاً وتجمّلاً . ولم ينقل عن احد من الخلفاء العباسيين انه انكر على احداهنّ تعليق الصليب بترأى منه ، او عدّ ذلك جرأة منهن ، بل كانوا يستظرفون ذلك منهن ويعجبون احياناً بهذا الحلي الرائع اذا تلألأت صفرته على بياض الجيد الناصع . وقد نقلنا في كتابنا « الصليب في الاسلام » ان المهدي العباسي ابن المنصور دخل يوماً بعض دوره ، فاذا جارية له نصرانية ، واذا جيبها اي طوق قميصها واسع وقد انكشف عما بين تدييها ، واذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع فاستحسنه ، فمد يده اليه فجذبه فاخذه ، فولولت الجارية على الصليب . فقال المهدي في ذلك تظرفاً :

يوم نازعتها الصليب فقالت ويحَ نفسي انا نحاتي الصليبا[2]

وانما يجذبه على طريق المداعبة ، دون اقل استهجان ، ولذلك قال الطبري « فاستحسنه » .

ومما يشهد ايضاً بشيوع اظهار الصلبان في دور الخلافة ان جواري القصر الروميات كنّ ، اذا حضر عيد الشعانين ، يحتفلن به في حضرة الخلفاء والحرم ، وفي اعناقهن صلبان الذهب ، وفي ايديهن الخوص والزيتون . وشهد المأمون مرّة عشرين منهنّ مزيّنات قد تزيّنّ بالديباج الرومي فاستظرفهنّ ، وضنّع فيهنّ ابياتاً غنّي له بها . ولم يزل يشرب وترقص الوصائف بين يديه حتى سكر[3]

وقد استهجن مؤلف كتاب « المرأة في جاهليتها واسلامها » مجلس المأمون هذا بين الجواري الروميات ، وقال متعجباً : « هل رايت كهذا خليفة رسول الله تُشَدُّ بين يديه الزنانير وتعلّق الصلبان ويعلق الخوص والريحان » ؟ ولم يكن ثمّ ريحان في الحقيقة وانما هو الزيتون استبدله حبّاً للسجع . وما ندري بمَ انكر شدّ الزنانير ؟ فهل كان يجهل ان الزنانير كانت من سمات اهل الذمة

١) القاموس المحيط للفيروزابادي ١ : ٩٣ ، والتاج ١ : ٢٣٨

٢) تاريخ الطبري ، طبعة اوربة ، القسم الثالث ١ : ٥٤٣

٣) الاغاني ١٩ : ١٢٨-١٢٩

التي اوجبها الشرع عليهم اذلالاً كالعمامة والغيار ؟ وهل شان المأمون في عينيه ، وازرى بجلافته استظرافه بعض الازياء والعادات في رعيته ، ومشاركته لهم في الفرح والابتهاج ، دون ان يرافقهم على شيء من الاعتقاد ؟ وهل يؤخذ عليه تعطفه لقبول كل احتفال واحتفاء به ، وهو قد طبع على الاعجاب بكل آية من آيات الجمال والاحسان ، ليس من الوصائف والنساء فقط ، بل من كل رجال الدين ؟ وقد حكى الشابشتي انه لما نزل سرة الدير الاعلى بالموصل وجاءه عيد الشمانين « زُيّن الدير في ذلك اليوم احسن زينة وخرج رهبانه وقسّانه الى المذبح وحولهم فتيانهم بايديهم المجامر قد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة فرأى المأمون ذلك فاستحسنه ثم انصرف اليوم الى تلاليهم وقربانهم وعطف المأمون الى من كان معهم من الجواري والغلمان بيد كل منهم تحية من رياحين وقتهم وبأيدي جماعة منهم كؤوس فيها انواع الشراب فادناهم وجعل ياخذ من هذا ومن هذه تحية وقد شُغف بما رآه منهم »[1] . وقد سبق القول انه كان لاعياد الشمانين ، خصوصاً في عهد الخلافة العباسية ، بهجة ورنة كانتا تستدعيان الناظر والسامع من كل حدب وصوب ، فكان يقبل اليها ويشارك فيها كل من شاء من المسلمين والمتزهين والشعراء . وفي كتب الادب ودواوين الشعراء صدى من اخبارها يجدر بالاستماع ، ولا نظن ان اقوام تلك الازمان كانوا اضعف اسلاماً او اخف احلاماً من بعض الغلاة اليوم الذين لم يستظهروا من تاريخ العصور الغابرة الا قول السامريين : لامساس

وظلّ تعليق الصليب في الاعناق حلية وبركة لها ، حتى دفع السخف المتوكل على الله الى انزاله فيها منزلة الحَرْي والعار . فامر ان يجعل في عنق كلّ واحد ، اذا خرج من بيته ، صليب خشب وزنه اربعة ارطال بالبغدادي[2] . وحشى على اثره الحاكم بامر الله وقلّده في مثل هذه الرعونة ، فامر في سنة ٣٩٩ (١٠٠٨—١٠٠٩م) ان يتميز النصارى في الحمامات بصليب يعلقونه في رقابهم ، وان يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب[3] . ثم تقدم في سنة ٤٠٣ (١٠١٢م) « ان يعلقوا

١) كتاب الديارات ٧٦
٢) اخبار قطار كة كرسي المشرق في المجدل ٧١
٣) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ١٩٥

في اعناقهم صلبان خشب مضافة الى الزنانير . . . فأخذوا بذلك في سائر اعمال مملكته ولبسوا صلباناً طولها فتر وغيّرها عليهم بعد شهر وجعلها قدر شبر فلما كان يوم الاحد النصف من شهر ربيع الآخر من السنة أمروا ايضاً بتعظيم الصلبان التي في اعناقهم وان يُجعل طولهـا ذراعاً ملكياً في عرض مثله وان يكون فتحها ثاني شبر وسمكها اصبع وقصد بذلك إضجارهم »[1]

وروى الذهبي ان الحاكم شرط على النصارى تعليق الصلبان ظاهرة على صدورهم . . فعملوا صلبان الذهب والفضة ، فانكر الحاكم ذلك وامر المحتسبين بالزامهم بتعليق صلبان الخشب ، وان يكون قدر الواحد اربعة ارطال[2] . وفي بعض الاقوال ان امر الحاكم كان سنة ٤٠٢ (١٠١١م) وان وزن الصليب كان خمسة ارطال[3].

وفي سنة ٤٠٨ (١٠١٧م) « افرد الحاكم بامره حمامات اليهود والنصارى من حمامات المسلمين وخطّ على حمامات النصارى الصلبان وعلى حمامات اليهود القرامي »[4]

وعلى هذا المثال كان تعليق الصلبان ، حيثما كانت ، فارقاً خاصاً للنصارى ليعرفوا بها ويتميزوا عن غيرهم لاول نظرة . ولما بلغت جيوش ابي مسلم مصر لقتال الخليفة مروان الجعدي « نادوا ان من كان نصرانياً يعلق مثال الصليب من الذهب والفضة والنحاس على جبهته وعلى ثوبه وعلى باب بيته ومن لم يعمل ذلك وقتل فلا ذنب علينا منه »[5]

وبالاجمال كان تقلد الصليب دليلاً على النصرانية او انتحالها ، والتحيز لها في بعض الفتن والمنازعات . وقد تقدم ان احزاب السنّة ، في قتالهم اهل الشيعة في بغداد سنة ٤٨٢ (١٠٨٩م) ، حملوا الصلبان في حلوقهم . ولما تنصّر ابن عائشة ، من ذريـة عبدالله بن عباس من اعمام الرسول ، مع من كان محبوساً

---

١) كتاب الذيل ٢٠٣-٢ ٢

٢) تاريخ الاسلام ، خزانة بريتش موزيوم Add. 48 f° 24b

٣) اخبار ملوك بني عبيد وسيرهم لابي عبدالله بن حماد ٥٤

٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ٢ : ١٨٦

٥) سيرة البيعة المقدسة لابن القفع ، طبعة بيروت ، ٢٠٤

معه في المطبق « شدّوا الزنانير في اوساطهم والصلب في اعناقهم »[1] فبادر المأمون الى ضرب عنقه سنة ٢١٠ (٨٢٥م)

٩ ــ قتال بعض ملوك المسلمين تحت لواء الصليب

ذكر المؤرخون عدة مواقع استجار بها المسلمون بالصليبيين لقتال الاعداء من الترك والتركمان والسلاجقة . ولكن ندر ان يختلط الجيشان ، وتتداخل الالوية لتخفق على رؤوس الصفوف الواحدة وفي سنة ٦٤٣ هـ ١٢٤٤ م كانت الواقعة بين الخوارزمية والفرنج وانضم المسلمون الى الفرنج . ووصف سبط ابن الجوزي تحالفهم وامتزاجهم تحت لواء واحد فقال :

« وكنت بالقدس وساق عسكر دمشق وعسكر حمص تحت رايات الفرنج وعلى رؤوسهم الصلبان والقسوس في الاطلاب يصلّون على المسلمين ويقسّمون عليهم وبايديهم كاسات الخمور والمغنيات(٢ يسقونهم . . . وانيت ثاني يوم الكسرة الى مكان الوقعة فرأيت الناس يعدون القتلى بالقصب فقالوا : هم زيادة على ثلاثين الف . . . واما صاحب حمص فانه وصل الى دمشق الا في نفر يسير وخيبة خزائنه وخيله وسلاحه وقتل اصحابه فجعل يبكي ويقول : قد علمت انّا لم نزل تحت صلبان الفرنج إننا لا نفلح »(٣

١٠ ــ الصليب على العمائم وبواطن الشراب

في اشعار الحانات والخمريات اشارات عديدة الى اوصاف القار والطين فوق الدنان والنواجيد ، تعلوها اختام الصليب ، كما كانت تخطّ ايضاً على زجاجات المياه المستقطرة من الازهار والورود ، تبركاً واستشفاء . ومن الشواهد المديدة قول ابن حمديس في صفة الخمرة النصرانية :

مختمة في يدي راهب ، على دنّها ختمة بالصليب(٤

وكان الصليب يُرى دائماً على الراووق وقد ظرف الشعراء واجادوا في المقابلة بين صليب الراووق وسفك ما فيه من دم الخمر ، وقهقهة الابريق عند الصب ، وهو ما يسمونه تصلية وسجوداً ، فقال الامير ناصر الدين حسن بن النقيب :

١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٥٨ – ٥٥٩

٢) الكتاب لفظة شاعت في الحقبة الصليبية ويعني بها كأساً كبيرة hanap ، وهي من الالمانية القديمة .

٣) الورق من تاريخ صلاح الدين الصفدي في المكتبة الاحمدية بحلب .

٤) ديوانه ، طبعة رومية ، ١٤

خذ شمس كأسك قبل مطلع اختها واسبق بها ، ان الكميت سبوق
في مجلس صلّى لقبلة كأسه الابريق ، لما صلّب الزاووق(١) *

واصدر الدين بن عبد الحق المتوفى سنة ٧٧٠ تقريباً:

اسيل الزاووق ، لا صُلبا ، ادهى لكن رأينا عجبا
يبكي الزاووق ببدم ، ضحك الابريق حتى انقلبا(٢)

ولفضل الله بن فخر الدين بن مكانس:

قم واصلب الزاووق ، واشفِ قلبي منه ، وانعني بذاك سولي
واسفك دم الزنّ وعاد عيدا حمراء من يأس بالفوز(٣)

وتقدّمهم جميعاً ابن الساعاتي فقال:

وحكاه الزاووق اذ قهقه الإ بريق من حسن صنعة الاوتار
ساجد للصليب منه ، وما يعـ ـرف دين الصليب والزنار(٣)

يريد بالزنار الطوق الذي يرى في خصر بعض الكئوس ، وجمع بذلك بين الصليب والزنار وهما من سمات النصارى في ديار الاسلام.

١١ ــ كسر الصلبان واهراقها بالاوامر السلطانية

يؤخذ مما حكاه البطريرك ميخائيل السرياني ان عبد الملك بن مروان كان اول خليفة امر بنزع الصلبان[٤] . ولعلّ هذا القول لا يخلو من الوهم لان عبد الملك شاهد دائماً الصليب طالعاً امام جيوشه التغلبيين ، وظاهراً في صدر شاعره الاخطل دون ان يُروى عنه اقلّ انكار له . واذا صح هذا الامر في زمانه ، فالارجح انه كان امر اخيه عبد العزيز بن مروان ، امير مصر ، لقول ابن المقفع عنه « امر بكسر جميع الصلبان التي في كورة مصر »[٥] ومما لا شبهة فيه ان ابنه الخليفة عمر هو اول من جاهر بامتهان النصارى واذلالهم ، وتقدم بكسر الصلبان في كتاب كتبه لعامل له رواه القاضي ابو يوسف يعقوب ، صاحب الامام ابي حنيفة ، قال فيه:

١) تذكرة الصفدي دار الكتب المصرية ، رقم ٤٣٠ ادب ، ص ١١٤
٢) مطالع البدور في منازل السرور للغزولي ١ : ١٢٧
٣) ديوانه
٤) Chronique de Michel le Syrien, édit. Chabot, T. II, p. 475
٥) سير البطاركة لابن المقفع ١٢١ ، طبعة بيروت .

« حدثني عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن ابيه بن عبد العزيز كتب الى عامل له :

« اما بعد فلا تدعنَّ صليباً ظاهراً الا كسرته ولا تركبنَّ يهودي ولا نصراني على سرج ولا يركب على اكاف ولا تركبنَّ امرأة من نسائهم على رحالة وليكن ركوبها على اكاف وتقدَّم بذلك تقدماً بليغاً وامنع من قِبَلك فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خزّ او عَصْب وقد ذُكر لي ان كثيراً من قِبلك من النصارى قد راجعوا لبس الباهم وتركوا المناطق على اوساطهم واتخذوا الجبام واوفروا وتركوا التقصيص ولعمري لئن كان يُصنع ذلك فيما قِبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة واضم حين يراجعون ذلك ليلبسوا ما ات فانظر كل شيء نُهيت عنه فاحدُث عنه من فعلهُ والسلام »[1]

وهذا الكتاب وحده ، اذا صحت كتابته ونسبته الى عمر ، كاف لاثبات ان الشروط العمرية المشهورة باذلال الذميين ليست من وضع عمر بن الخطاب ، كما زعم الفقهاء مغالطة للرجوع بها الى صدر الاسلام ، واستمداد قوة لها من سلطة اشهر الخلفاء الاولين ، بل هي من وضع الخليفة المرواني عمر بن عبد العزيز . فهو في الحقيقة خطيبها الاول الذي يجب ان تُعزى اليه اذا تضافرت الشواهد على الحاقها به .

واقتدى الخليفة يزيد بن عبد الملك بسه عبد العزيز « في كسر الصلبان وكثط الصور في البِيَع وحمَّل الناس ثقلاً عظيماً حتى ضاق كل من في بلاده »[2] . وفي ايامه سنة ١٠٤ (٧٢٢م) كان اسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج على النصارى بمصر ، فهدمت الكنائس ، ومُحيت التماثيل اي الصور في البِيَع والديارات ، وكُسرت الصلبان وكانت كثيرة[3] .

وكانت هذه المِحَن تتجدَّد على النصارى في كل عصر . فيكثر انتهاب ذخائر الكنائس ، ومصادرة ما في الديارات من مُقتنيات الذهب والفضة ، مما يضيق نطاق هذه الصفحات عن تعداده . وحسبك ان الامير يلبغا الناصري ، بعد وقعة الاسكندرية سنة ٧٦٧ / ١٣٦٥ ، وغزو مراكب قبرص ، صادر جميع النصارى والرهبان في مصر والشام ووضع اليد على جميع ما في الاديار من الاموال ، حتى يقال انه اجتمع عنده من ذلك اثنا عشر الف صليب منها صليب

١) كتاب الخراج ١٥٢

٢) سير البطاركة لابن المقفع ١٥٢

٣) الخطط للمقريزي ٢ : ٤٩٣ – ٤٩٢

ذهب وزنه عشرة ارطال مصرية[1] . وكان نصيب كل هذه الصلبان الكسر بحكم الشرع .

وكان بعض متحلي الاسلام من النصارى يُكرهون على كسر الصليب ، والوطء عليه بالقدم ، اقرارًا منهم بالاسلام والتبرؤ من الدين المسيحي ولذلك لما حمل صلاح الدين الايوبي طبيبه ابا نصر اسعد بن الياس بن المطران على الاسلام وزوّجه احدى حظاياه جورة قال ابن عُنين يهجو ابن المطران:

الحمد لله واجب الشكر قد اهتدى بيدي ابو نصر
وقال ان الصليب ليس يعبود ، وانفق الصليب في الكسر[2]

ولما افتتح صلاح الدين الايوبي حصن بيت الاحزان من ايدي الصليبيين ، قال نشوء الدولة احمد بن نقادة الدمشقي يمدحه من قصيدة:

هلاك الفرنج اذ عاجلوا . وقد آن تكسير صلبانهم
ولو لم يكن دنا حتفها ، لما عمرت بيت احزانهم[3]

« وفي سنة ٣٧٨ (٩٨٨م) منع الحاكم بامر الله النصارى من تزيين كنائسهم وأحرقت عدة من صلبانهم على باب الجامع العتيق والشرطة »[4]

« وفي سنة ٣٩٤ (١٠٠٣ - ١٠٠٤م) احرق الحاكم عدة كثيرة من الصلبان ومنع النصارى من اظهار زينة الكنائس في عيد الشعانين وتشدد عليهم وضرب جماعة منهم »[5]

ونقف عند هذا الحد . وفي الآثار الاسلامية مجال المزيد ، وانما نقلنا ما نقلناه على سبيل الاستشهاد والتعريف .

---

١) ذيل السخاوي على دول الاسلام للذهبي ، خزانة اكسفرد دون ارقام Marsh. 508
٢) ديوانه ، خزانة الفاتيكان رقم ٣٦٠
٣) كتاب الروضتين لابي شامة ٢ : ١١
٤) الخطط للمقريزي ١ : ٣٦٤
٥) الخطط ٢ : ٥٠٧

الزنار

١ ــ الزنار في اللغة والشرع

عرّف اللغويون الزنار بانه خيط غليظ يُشدّ في وسط النصارى والمجوس . من قولهم : تزنّر الشيء ، اذا رقّ [1] وفي المعرّب للجواليقي : قال ابو بكر : الزَنْز فعل مات . تزنز الشيء اذا دق . ولا احسبه عربياً . فان يكن للزنار اشتقاق فمن هذا . وقال سيبويه : ليس في كلام العرب نون ساكنة بعدها راء مثل قَنْر وزَنْز [2] . وفي اساس البلاغة : شدّ الزنار ، او الزنّارة ، على وسطه وتزنّر النصراني وتقول : رمى الله تعالى بالزنانير اصحاب الزنانير اي بالحصى [3] .

وذكر القاضي ابو يوسف يعقوب الزنارة فقال : يؤخذ النصارى بان يجعلوا في اوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم هكذا كان عمر بن الخطاب (رضه) امر عماله ان ياخذوا اهل الذمة بهذا الزي حتى يعرف زيهم من زي المسلمين [4] . وفسّر ابو يعلى الفراء شدّ الوسط بالزنار بانه « مبالغة في الإذلال بدلالة انه يفعله العبد والخدم » [5] .

وخصّ بعضهم الزنّار بانه من الابريسم ، وهو نوع من الحرير ، وعليه قول التعريفات : « الزنار خيط غليظ بقدر الاصبع من لابريسم يشد في الوسط وهو غير الكُستيج » [6] . وذكروا في تعريف الكستيج انه « خيط غليظ بقدر الاصبع من الصوف يشدّه الذمّيون فوق ثيابهم ، دون ما يتزينون به من الزنانير المتخذة من الابريسم معرب كستي بالفارسية » [7] . وفي شرح دُرر الحكّام في غُرر الاحكام : « الكستيج هو خيط غليظ بقدر الاصبع من الصوف والشعر

١) التاج ٣ : ٢٤٣ ، واللسان ٥ : ٤١٩
٢) المعرب طبعة اوربة ، ٧٧
٣) اساس البلاغة ، طبعة الدار ، ١ : ٤٠٩
٤) كتاب الخراج ١٥٢
٥) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ، مخطوط ، ص ٩
٦) التعريفات ، طبعة سنة ١٣٥٣ ، ص ٦٧ ــ ٦٨
٧) التاج ٦ : ٩١ ، والقاموس ١ : ٣٠٥

يشدّه الذمي على وسطه وهو غير الزنار فانه من الابريسم »[1]. فيكون فرق ما بين الزنار والكستيج ان الاول من الابريسم ، والثاني من الصوف ، ولكن غلب في الاصطلاح اطلاق الزنار على كل ما شدّ الوسط من ابريسم او صوف او شعر او قطن او جلد وما اشبه من منديل ونحوه . ومع انه وُضع في الاصل لما كان من الحرير ، اضطروا بعد ذلك الى تقييده في الكلام على شروط اهل الذمّة بان لا يكون من الحرير . قال القلقشندي : « يشد الرجال منهم الزنار من غير الحرير في وسطه وتشده المرأة تحت ثيابها وقيل فوقه »[2]

٢ متى دخل الزنار في شروط الذميين

ليس في اشعار الجاهلية التي وقفنا عليها ذكر لزنار النصارى ، الا في ابيات ثلاثة لعدي بن زيد في احدى روايتين لها وهي قوله :

يا لُبينى أوقدي النارا إن من تهوين قد حارا
رب نار بتُّ ارمقها تقضم الهندي والغارا
ولها ظبي يؤجّجها عاقد في الشعر زنارا[3]

ولكن صاحب الاغاني نقل البيت الثالث منها هكذا :

عندها ظبي يؤرّثها عاقد في الجيد زنارا[4]

وكان النصارى ، قبل الاسلام ، يتزيّنون بالزنانير المحلّاة بالذهب والفضة ، ويتباهون بلبسها . قال ابو الفرج الاصبهاني : « كان النعمان يركب في كل احد الى دير اللجّ ، وفي كل عيد معه اهل بيته من آل المنذر ومن يناديه من اهل دينه عليهم حلل الديباج المذهبة وعلى رؤوسهم اكاليل الذهب وفي اعناقهم الزنانير المحلّاة بالذهب المفصّصة بالجوهر وبين ايديهم اعلام فوقها صلبان الذهب »[5]. وقد سبق الرهبان قديماً الى التزنّر والانتطاق . ونُقل عن مار أمّه او ابّا الجاثليق انه كان اول من امر الاسكلانيين بشدّ الزنانير في

١) خزانة الفاتيكان رقم ٢٤٧
٢) صبح الاعشى ١٣ : ٢٦٤
٣) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٥
٤) الاغاني ٣ : ٢١
٥) مسالك الابصار للعمري ١ : ٢٢٦

اوساطهم ، ليتميزوا بذلك عن غيرهم[1] . فالزنّار اذن كان معروفاً عند النصارى ، قبل الهجرة ، والامام عمر بريء من تهمة وضعه عليهم قصد إذلالهم. وقد روى ابن عساكر في جملة الشروط التي زعموا انه اوجبها عليهم قوله بلسانهم «لا نتشبه بالمسلمين في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا سراويل ذات خدمة ولا نعل ذات عذبة ولا غشي الا بزنار من جلد[2]» وقد عقّب ابن عساكر على هذا القول بحديث مسروق عن عبد الرحمن بن غنم انه قال : ما رأيت هذه الزيادة في ما وقع الينا من عهود عمر بن الخطاب ووجدتها مروية عن عمر بن عبد العزيز[3] . وفي هذا الاستدراك من ابن غنم حجة قاطعة بنفي تهمة الشروط عن ابن الخطاب ، ونسبتها الى ابن عبد العزيز . على اننا نشكّ ايضاً في هذه النسبة ، لان لبس الزنار كان شائعاً بين النصارى في الجاهلية ، قبل خلافة العمرين ، ولم يكن زنّار الجلد خاصاً بعامة النصارى كما يوهم الشرط المذكور ، بل كان ينفرد به الرهبان والنساك كاليوم . وقد راجعنا كل ما وقع لنا من اخبار الامويين ، والاشعار المقولة في زمانهم ، فلم نجد فيها ذكراً للزنار في اوصاف النصارى الّا في ما زعموه من اوامر ابن عبد العزيز وكتبه الى عماله في التضييق عليهم . واكثر ما يجي التغزّل بالزنار في خصور الغلمان في الاشعار العباسية . ولابي نواس ابيات فيها اشتهرت عنه ، وظرف فيها غاية الظرف ؛ وعلى سنّته مشى من جاء بعده من الشعراء ، حتى اصبح الزنار ، بعد الصليب ، من اشهر سمات النصارى في الاسلام . ولذلك قال ابن المعتز في وصف ساقٍ نصراني :

وجاس غاب عنّا عاذله حنّ به نرجس ونسرين
وزانه من بني العباد رشا ، بالجيد والقلنسوة سحّار
ابن نصارى يدين دينهم حدّث عنه بذاك زنّار[4]

وله ايضاً :

قد حثني بالكأس ، اول فجره ، ساقٍ علامة دينه في خصره[5] .

---

١) تاريخ حضارة الناطرة ٦٦٥٣ باريس ، ١٨٠

٢) تاريخ ابن عساكر خزانة برلين ، وزيرم 8888 ff 302 r. (2)

٣) تاشير الشراب ٣٢٩٩ باريس ٢٨

٤) من غاب عنه المطرب للثعالبي ٣٦٠١ باريس ١٢٧

ومما يرجح ايضاً حدوث شرط الزنار في اوائل عهد العباسيين ، ان الكستيج لم يكن معروفاً في الخلافة الاموية ، وهو لفظ فارسي دخل بغداد مع المال الفرس ، وقلّ استعماله . واذلك اغفله « لسان العرب » ولم يُشر اليه كتاب الخراج في كلامه على لباس النصارى الذي كتبه القاضي ابو يوسف يعقوب لهرون الرشيد . وهم يفرقون بين الزنار والكستيج ؛ وعندهم ان الكستيج يجب ان يكون في وسط كل ذميّ ، واذا وضع معه الزنار ، يجب ان يكون الكستيج من دونه ، اي تحته ، ولكن غلب ذكر الزنار وحده في الاوامر السلطانية ، كما سيجيء . ولم نجد فيها اقلّ اشارة الى الكستيج .

٣ ــ اشتهار النصارى بالزنانير دون سائر الذميين

في الشروط العمرية ان الزنار كان متوجباً على اهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس ولكن لم تشتهر به حقيقةً الا النصارى وحدهم . وقد سبق تعريف اللغويين ان الزنار خيطٌ يشدّ في اوساط النصارى والمجوس ، دون اشارة ما الى اليهود . وقلّ جدًا ذكر اليهود في الاوامر السلطانية بلبس الزنار . ومن الابيات القليلة التي صُرّح فيها بلبسهم اياه قولُ ابي نواس ، وقد نزل في حانة خمّار يهودي :

وفتيان صدق قد صرفت مطيّهم ... الى بيت خمار ، نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنّارُ ان ليس مسلماً ، ... ظننّا به خيرًا ، فظنّ بنا شرّا
فقلنا : على دين المسيح ابن مريم ؟ ... فاعرض مزوّرا ، وقال لنا هُجرا
ولكن يهوديٌّ يجيك ظاهرًا ... ويضمرُ في المكنون منه لك الغدرا
فقلت له : ما الاسمُ قال : سؤالٌ ، ... ولكنني أُكنى بعمرو ، ولا عمرا
وما شرفتني كنيةٌ عربيّةٌ ، ... ولا أكسبتني لا ثناءً ولا فخرا
ولكنها خفّت وقلّت حروفها ، ... وليست كأخرى انها جمعت وقرا
فقلنا له ، عجبًا بظرف لسانه : ... اجدت ابا عمرو ، فجوّد لنا الخمرا[1]

وعلق شارح الديوان على البيت الثاني انه « يقول ظننا انه نصراني فاذا هو يهودي فغضب من قولنا : « انت نصراني » . والنصارى عندهم اظرف من اليهود »[1] وكان اليهود اكثر ما يعرفون بالغيار اي باللون الاصفر في عمائهم . ولما زار

١) ديوانه ، خزانة الفاتيكان رقم ٦٥٦ ، ص ١١٤

ابن سعيد مدينة القاهرة وكان وصوله للاسكندرية سنة ٦٣٩/١٢٤١ قال : « اكثر ما يتميش بالقاهرة اليهود والنصارى في كتابة الخراج والطب. والنصارى يمتازون بالزنار في اوساطهم واليهود بعمائم صفر ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة[1] »

ومع ان النصارى كانوا يمتازون ايضاً بعمائم خاصة بهم ، فلم يلحظ ابن سعيد من غيارهم الا زنانيرهم . وهو ما يدلّ على ان اليهود لم يكونوا معروفين خصوصاً كالنصارى بشد الزنار ، بل عالباً بلبس الغيار في العمائم والرقاع المخالف لونها لون ثيابهم ، كما سيأتي الكلام عليها . ولذلك كتب بديع الزمان في احدى رسائله : « من لم يلبس مع اليهود غيارهم ولم يعقد مع النصارى زنارهم ولم يشبّ مع المجوس نارهم هُدي[2] . . . فكان من ثم كلّ مزنّر يُرى لاول وهلة يُظن انه نصراني ، كما سبق من وهم ابي نواس .

ومن المُلح التي يطيب ايرادها هنا ما حكاه القاضي التنوخي بروايته عن ابي الحسن بن عياش قال:

« ان اسمعيل بن بلبل لما قصده صاعد (بن مخلد الوزير) لزم داره وكان له حمل قد قرب وضعه فقال : اطلبوا لي منجما يأخذ مولده فأتي به فقال له بعض من حضر : وما تصنع ايدك الله بالنجوم ؟ هنا اعرابي عائف (٣ ليس احذق منه . . . فلما دخل قال له اسمعيل : تدري لاي شيء طلبناك ؟ قال : نعم لتسألني عن حمل . وقد كان اسمعيل اوصى ألا يُعرّف ـ فتعجب من ذلك فقال له : فاي شيء هو ذكر ام انثى ؟ فادار عينه في الدار فقال . ذكر . . . فبينا نحن كذلك اذ طار زنبور على رأس اسمعيل وغلام يذبّ عنه فضرب الزنبور فقتله فقام الاعرابي وقال : قتلتَ والله المزنّر وولّيت مكانه ولي حتى الشارة وجعل يرقص واسمعيل يبكّته فنحن كذلك اذ وقعت الضجّة بخبر الولادة فقال : انظروا ما المولود فقالوا ذكر . . . فما مضى على هذا الا دون شهر حتى استدعى الموفق (اخو الخليفة المعتمد) اسمعيل وقلّده الوزارة وسلّم اليه صاعداً وذكر حديث الاعرابي فطلبه فجاؤوا به فقال : خبّرني كيف قلت ما قلته ذلك اليوم . . . فقال : نحن اذا تفاءل وتزجر الطير ونميف ما وراءه فسألتني اولاً لأي شيء طُلبتُ فتاملّت فرأيت فوق البرّاءة عصفوراً ذكراً ثم طار

---

١) نفح الطيب ١ : ٤٩٣

٢) رسائله ، طبعة الاستانة ، ٢٢١

٣) العائف هو زاجر الطير . والعيافة ان تعتبر اسماء الطير ومساقطها واصواتها فتستدل او تتشاءم

الزنبور عليك بحضر والنصارى متخصرون بالزنابير والزنبور عدو يريد ان يلسعك وصاعد نصراني الاصل وهو عدوك فزجرت ان الزنبور عدوك وان الغلام لما فيه انك ستقتل (١)

وفي ما سبق دليلٌ ظاهر على ان اختصاص النصارى بالزنار كان للتمييز بينهم وبين اليهود ، تفياً لكل اشتباه لان الصليب لم يكن يعلق دائماً في كل الاعناق ولذلك خُص النصارى بالزنار الظاهر ، كما خص اليهود بالغيار الاصفر ليُعرف به كلٌ من الفريقين لاول نظرة.

٤ - عقد الزنار كنايةٌ عن التنصر وقطعه كنايةٌ عن الخروج من النصرانية

لما غلب انفراد النصارى بالزنار ، واشتهروا بعقده دون سائر اهل الذمة ، اصبح لفظ « عقد الزنار » كنايةً عن التنصر ، فكان يقال لكل من مرق من دينه وانتحل الدين المسيحي « قد عقد الزنار » . وهو التعبير الذي اختاره ابن جبير الرحالة الاندلسي المشهور قال:

« من سوء الاتفاقات المستغاذ من شرها انه صحبنا في طريقنا الى عكة من دمشق رجل مغربي من برقة محل بجاية كان اسيرا فتخلص على يدي ابي الدرداقوت مولى الطائي وبقي في جملة صبيانه فوصل في قافلة الى عكة وكان قد صحب النصارى وتخلق بكثير من اخلاقهم لما زال الشيطان يستهويه ويستغويه الى ان نبذ دين الاسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور فانصرفنا الى عكة وأخبرنا بخبره وهو فيها قد نفس ورجس وقد عقد الزنار واستعجل النار وخفت عليه كلمة العذاب وتأهب لسوء الحساب (٢)

وفي ضدّ ذلك كانوا يقولون « قطع الزنار » لمن تبرأ من النصرانية ، وخالف سُننها ونواهيها ، واستحق الاطراح منها ، كأنه تخلص مما كان يربطه بها من اواصر الاعتقاد ، وافلت من علائقها وعوائقها . واكثر ما كان يستعمل هذا التعبير في الرهبان ورجال الدين المارقين ، وهو حقيقة غير مجاز لانهم كانوا وقتئذٍ يخلعون فعلًا الزنار ، ويلقونه بعيدًا عنهم كأنهم تحرّروا من ربقته وتبرّروا من سمته . ولما قصد تادورس مطران باجرمى دار السلطان ببغداد في ايام الوزير علي بن عيسى « قال ابو الفرج بن ديزار : « كنت حاضرًا ورأيته قبل دخوله ليترع ثياب البهاء ويقطع الزنار قد عثر وانكبّ على وجهه فخرج

(١) نشوار المحاضرة ١ : ٢٦٤

(٢) رحلته ، طبعة ليدن ، ٣٠٨ - ٣٠٩

من جبهته الدم[1] » . وحُكي ايضاً عن مطران تكريت انه « دخل بغداد واختصم مع اهل نحلته . واستوعب مال بيع تكريت وبغداد وعبر الى دار السعيد واسلم على يده واكل اللحم ودخل دار الخليفة وقطع زناره وكفر بالمسيح . . . وقصد اليعاقبة اقبح قصد وادعى عليهم كل دعوى[2] » .

ومن النكات المروية في هذا المعنى ما حدث به ابو العتاهية الشاعر المعروف من اخباره مع عتبة جارية قصر المهدي التي كان يتغزل بها قال:

« جلست عتبة يوما في اصحاب الجوهر وعرضت قلبست ثياب راهب . . . وسألت عن رجل كبير من اهل السوق فدُلت على شيخ صائغ فجاءت اليه فقالت اني قد رغبت في الاسلام على يدي هذه المرأة فقام معي وجمع جماعة من اهل السوق وجاءها فقال ان الله قد ساق اليك اجرًا هذا راهب قد رغب في الاسلام على يدك قالت : هاتوه فدنوت منها فقالت : اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وقطعت الزنار ودنوت وقبلت يدها فلما فعلت ذلك رفعت العرنس فعرفتني وقالت : تَحُوه لعنه الله[3] »

وما لبث المكدّون والنصابون ان ادخلوا قطع الزنار في جملة حيلهم واحابيلهم ، وتوصلوا الى صيد الدراهم من ايدي المغفلين . ومن املح الحكايات المروية في هذا الباب ما حكاه القاضي التنوخي قال ، وحكايته مثال من افانين المحتالين والمصوص التي اتقنوها وبلغوا الغاية منها لخداع الناس:

« قال بعض المكدّين ببغداد عن شيخ لهم أيسر وعظمت حاله واستغنى عن الشحذ فكان يعلمهم ما يعملون فسألنا عن سبب نعمته فقال : كنت تعلمت السريانية حتى كنت اقرأ كتبهم التي يصلون بها ثم لبست ثوب راهب وخرجت الى سرّ من رأى وبها قواد الاتراك فاستأذنت على احدهم فأدخلت فقلت له : انا فلان الراهب صاحب الدير الفلاني (اي الدير) وذكرت ديرًا بعيدًا بالشام وانا راهب فيه منذ ثلاثين سنة وكنت نائما فرأيت النبي صلعم وكأنه دخل الى عمري فدعاني الى الاسلام فاجبته فقال لي امض الى فلان القائد حتى يأخذ عليك الاسلام فانه من اهل الجنة فجئت لأسلم على يديك قال ففرح التركي فرحا عظيما شديدا . . . وقطعت الزنار واسلمت بحضرته قال فوصلني بما قيمته خمسة آلاف درهم من الدراهم والثياب وغيرها وعدت الى منزلي فلما كان من غد بكرت الى قائد منهم يزي الرهبان وقلت له كما قلت للاول واعطاني اكثر من ذلك حتى طفت على جماعة منهم فحصل لي من جهتهم اكثر من خمسين الف درهم[4] . . . »

---

١) اخبار فطاركة المشرق ٩١

٢) اخبار فطاركة المشرق ١١٥ – ١١٦

٣) بغية الطلب لابن العديم ، ٢٩٣٨ باريس ، ١٠٢ ٤) نشوار المحاضرة ٨ : ١٦٣

وكان حنين بن اسحق العبادي الطبيب واشهر التراجمة في ايام العباسيين يلبس الزنار[1] . ولما اوجب الجاثليق والاساقفة لعنه في مكيدة دُبّرت عليه « لُعن سبعين لعنة بحضور الملا من النصارى وقُطع زناره[2] »

٥ ـ الزنار في الغزليات والخمريات

اكثر الشعراء في الاسلام من ذكر الزنار في ابياتهم التي وصفوا فيها فتيان النصارى وفتياتهم . واشهرها بيتان لبكر بن خارجة قالهما في عيسى بن ايليا[3] العبادي الصيرفي من مزدوجة نظمها في اطراء النصارى وتعداد شرائعهم واعيادهم والثناء على اديارهم ، وهما:

وشادن قلبي به مسهود ، شيبته الهجران والصدود
زنّاره في خصره معقود ، كأنه من كبدي مقدود

قال دعبل : ما يعلم الله اني حسدت احدًا قط ما حسدت بكرًا على هذين البيتين[4]

ولبكر بن خارجة ايضاً من قصيدة:

معاقد الزنار في خصره عذّبني في الحب الوانا[5]

ونظيرها قول مدرك بن علي الشيباني في مزدوجته المشهورة « من عاشق نآه هواه دانِ »

يا ليتني كنت له زنّارا يديرني في الخصر حيث دارا[6]

ولابي نواس من قصيدة استحلف بها غلاماً كان يهواه:

وبالصُلب العظيمة ، حين تبدو ، وبالزنار في الخصر الدقيق[7]

---

١) تاريخ الحكماء للقفطي ، طبعة ليبسيك ، ١٧١
٢) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ١ : ١٨٩ ، ١٩٥
٣) الاغاني ٢٠ : ٨٧ ، ومسالك الابصار ٣٠٨ . وفي الاغاني ان اسمه كان عيسى بن البراء ، وهو تصحيف .
٤) الديارات للشابشتي ، الورقة ١٠٦
٥) اسواق الاشواق لابي الحسن ابرهيم البقاعي ، ٣٠٦٥ باريس ، ١٥١
٦) الديارات للشابشتي ، الورقة ٨٩

ولمهلهل بن يموت بن المزرّع في غلام نصراني:

شدّ زناره على رقة الخصـــــر ، وشد القلوب في زناره(١

ولابن المعتز في ساقٍ نصراني كان يلبس القُرطق ، وهو نوع من القباء ، ويعلق ذيله في زناره:

وان شئتُ عاني غزال دساكرٍ يبقر احشاء الدجى بمزاره
مليح كغصن البان ، يحمل ذيله زناره ، في قرطقٍ غير سبلٍ(٢

وله ايضاً في ساقٍ آخر:

وعاقد زنار على غصن الآسِ دقيق الماني ، خلف الخصر ، مياسِ
سقاني عقاراً صبّ فيها مراحها فاضحك عن ثغر الحباب فم الكاسِ(٣

ولابي الحسن المرورذي المتوفى في حدود الاربعمائة في غلام نصراني:

وما انسَ لا انس ظبي الكنا س يريد الكنيسة من دارهِ
يحوط بزنـاره خصره ، ويرعى الحلال بمزاره(٤

ولابي الحسين بن الصبان المهدوي — ورد دمشق في دولة نور الدين وتوفي بها — في غلام نصراني في صقلية:

ومزنر عقد الصليب بنحرهِ ، وادار حول وشاحه انجيلا
خمدت بجنح الليل جمرة ناره ، فاقام غمرة دمّه قنديلا
متطلع لذوي الهدى من كأسه نجم يكون الى الصباح دليلا(٥

ولسبط ابن التعاويذي في شماس من دير الثعالب ، رآه في بغـداد ، في عيد للنصارى:

وغزال علقتهُ ، يومَ دير الثعالبِ
من ظباء الصريم يخـــــطر في زيّ راهبِ
كالقضيب الرطب يو هبهِ حمل الذوائبِ
شدّ زنـاره فحـــــلّ عقود المذاهبِ(٦

١) الديارات للشابشتي الورقة ٩٢
٢) ديوانه ، رواية الصولي ، ٣٠٨٧ باريس ، ١١٣
٣) غاية الآداب للنويري ٤ : ١٣٠
٤) الثاني عشر من عيون التواريخ للكتبي ، من الخزانة التيمورية ، ٢٥٦
٥) خريدة القصر للعماد الاصبهاني ، ٣٣٣٠ باريس ، ٥٨
٦) ديوانه ٥٢ — ٥٣

ولابي الهيذام في وصف مهرجان نصراني:

فمن مواه هناك مقبلة ، ومن غزال عليه زنّارُ(١

ولابي الحسن بن وكيع التنيسي في غلام مزنّر:

فصلّ النصرانّ لاحا من غرسنا عند التأمل ، وهو غرس البارئ
قد عيّب الزنار رقةُ خصره حتى ظننّاه بـلا زنار(٢

ولابن المعتز في وصف رهبان دير عبدون:

مزنّرين على الاوساط قد جعلوا على الرؤوس أكاليلًا من الشعر(٣

وللسري الرفاء في راهب يقرع الناقوس في دير الشياطين:

حتى اذا انطق الناقوسَ بينهم مزنّر الخصر ، رومي الفرابين(٤

ولابي علي حسن الغزي في رهبان دير المصلبة:

ومزنرين اذا تلوا انجيلهم ، وتمطفوا ، دحمام وعسون(٥

وللشهاب العمري في راهب دير الخمان:

ما شدّ زنارًا لها في بيعة ، الّا وحلّ عزائم الرهبان(٦

وله ايضاً في راهب دير بلوذان:

ناحل الخصر حلّ عقد اصطباري عندما شدّ خصره الزنارُ(٧

وله من ارجوزة في رهبان الدير الابيض بمصر:

وقدموا في البيعة القنديلا ، وزنّروا الرؤساء والانجيلا
وزيّنوا الهيكل بالقربان ، وصفّفوا الشموع والقناني
وسكبوا الصهباء في الابريق ، صفراء ، او حمراء ، كالعقيق
وصبّها في الكأس مثل اللهب ، عقدة مثل شريط الذهب
يسعى بها مفرطقٌ مزنرٌ شبه الغزال الخشف ، أحوى ، أحورُ
من فتية داروا على الانجيل من لي بجم ، لو اضم من جبلي(٨

(١) ارشاد الاريب ٦ : ٣٠٩
(٢) اليتيمة للثعالبي ، طبعة القاهرة ، ١ : ٢٢٥
(٣) معجم البلدان ٣ : ٦٧٨
(٤) معجم البلدان ٣ : ٦٧٣
(٥) مسالك الابصار ١ : ٢٤٠
(٦) » » ١ : ٢٤٩
(٧) » » ١ : ٢٥٨
(٨) » » ١ : ٢٨١

ولاحد الشعراء في وصف خروج النساء الى قبة السنيق:

والنصارى مشدّدين الزنا نير، عليهنّ كل حلي وثيق
يتمشين من قباب الشما نين الى صحن قبة السنيق (١)

وللرقيق القيرواني في راهبة في دير القصير، بالقرب من القاهرة:

مسيحية خوطية، كلما انثنت تشكّت اذى الزنار من رقة الخصر (٢)

ولعبدالله بن العباس في فتاة نصرانية كان يهواها، ولا يراها الّا اذا خرجت الى البيعة، فوقف لها مرة في عيد الشعانين وانشد فيها وغنّى فيه:

يا نظرة امنت جوى قاتلا من شادن، يوم الشعانين
خرجنَ يغنينَ الى تربة، عوانفا بين البساتين
مزنّرات صابيناتها، والعيش ما طيّب الغانين (٣)

وكان بعض النساء النصرانيات الفاتنات المشهورات بالحسن يكتبن احياناً على زنانيرهن ابياتاً من الغزل، تحبباً وتظرفاً. قال الوشاء: رأيت جارية في بيعة ماري مريم في دار الروميين، بمدينة السلام، كأنها فلقة قمر، خارجة من الهيكل وفي وسطها زنار عليه بيتان:

زنّارها في خصرها يطربُ، وريحها من طيبها اطيبُ
وجهها احسن من حليها، ولونها من ثوبها اعجبُ

ومثل هذا التظرف والافتنان في الزيّ والملبس، تحول الزنار النصراني من سمة الذلّ والصغار الى شارة التجمل والفخار. حتى كان كل مزنّر او ضامر الخصر من الطُرق والتحف ينسب فوراً الى النصرانية، كبعض كؤوس الشراب المستدقة الوسط التي وصفها عبد الصمد بن بابك بقوله في الخمر:

هيم القسّ حولها، وتغنى بزمامير دنّها المزمارُ
ثم لما انتمت الى دين عيسى، شُدَّ في حقو كأسها زنار

ولا يخفى ما في مثل هذا التنبُّه والتخيُّل من الدقة واللطف.

---

١) الديارات للشابشتي ١٠٥ – ١٠٦
٢) ارشاد الاريب ١ : ٢٦١
٣) الاغاني ١٧ : ١٢٦
٤) كتاب الموشّى لابي الطيب محمد الوشاء، ليدن، ١٧٣

٦ ـ تعليل الافرنج زنار النصارى واختلاف اقوالهم في تعيين المزنرين منهم

في رحل الاوروبيين الى الشرق ، بين القرن الرابع عشر والسابع عشر ، عدة اشارات الى نصارى الزنار ، كما يقولون Chrestiens de la ceinture ، وتعليلات غريبة للبس الزنار . ذكر بعضهم انهم دعوا كذلك لانهم يتمنطقون بزنانير عراض من الجلد[1] ، تذكارًا للقديس توما الذي القت العذراء عليه زنارها يوم انتقالها[2] . وزعم آخرون ان هذا الاسم أطلق عليهم لانهم حين يُعمَّدون ويُغطَّسون يشد الكاهن وسطهم بزنار[3] ، عملًا بقول الكتاب : « لتكن احقاؤكم مشدودة »[4] . واضاف آخر انهم يعرفون في زعمه بعلامتهم الصفر[5] .

وقد تباينت ايضاً اقوالهم في تعيين الفرق التي كانت تُلقَّب بالمزنَّرة . وعدد احدهم طوائف النصارى في بيت المقدس وذكر منهم الفرنج ، والارمن ، والروم ، و« نصارى الزنار » (كذا) ، والقبط ، والسريان (?Serfz) والملكيين[6] . فهل عنى بنصارى الزنار الموارنة ، كما يستدل من قول احدهم : « كان عطاؤه نصرانيًا مارونيًا وبعبارة اخرى مزنَّرًا ، للبسه زنارًا طويلًا عريضًا من الجلد[7] ؟ » وقال آخرون ان المزنرين هم الروم ، واتتهم اليونانية[8] ، والقبط ، ولهم صليبات

---

(١) *Voyage du Seigneur de Villamont* (1589). Rouen, 1618 p. 337.

(٢) Gabriel Giraudet, *Discours du voyage d'Outremer* (1583). Rouen, 1637, p. 112.

(٣) Greffin Affagart, *Relation de Terre Sainte* (1533-34). Paris, 1902. p. 131 .

Bernard Parisien. *Voyage de Hierusalem* (1616-17). Paris, 1921. p. 236.

(٤) Francisco Suriano : *Il Trattato de Terra Santa e dell'Oriente* Milano, 1900. p. 76.

(٥) Carlier de Pinon, *Relation du voyage d'Orient* (1579). Paris, 1920. p. 250.

(٦) Le Baron d'Angelure : *Le Saint Voyage de Jérusalem* (1395). Paris, 1858, p. 221.

H. Moranville : *Un voyage en Terre Sainte* in Bibliothèque de l'Ecole de Chartes LXVI 1905. p. 83.

(٧) *Voyage du Seigneur de Villamont*, p. 337.

(٨) Bernard Parisien : *Voyage de Hierusalem*, p. 236.

في كنيسة القيامة[1] وفي كل هذه الاقوال وهم والتباس لان الزنّار كان واجباً على كل نصارى الدولة المصرية ، ولان العمائم الصفر كانت غيار اليهود واما النصارى فكانت عمائمهم زرقا كما سيجيء.

٧ ـ الوانه الزنار

تقدّم ان الزنار كان يتخذ من جلد ، وشعر ، وصوف ، وقطن ، وابريسم ، وحرير فكانت من ثمّ الوانه تختلف ، بحسب ما يعمل منه ولم يكن يطلب من اهل الذمة الّا ان يكون ظاهراً بيناً ، ليتميّزوا به عن المسلمين . ولعلّ اول من الزمهم الاقتصار فيه على السواد كان الحاكم بامر الله ، كسائر ما احدثه بهم من الحماقات والسخافات . قال يحيى بن سعيد الانطاكي : « سنة ٤٠١ (١٠١٠م) امر الحاكم ان تؤخذ الذمة من النصارى واليهود بتغيير الزنانير الملوّنة التي يلبسونها والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط دون غيرها من الالوان[2] ».

وروى المقريزي هذا الامر بتاريخ سنة ٤٠٣ (١٠١٢م) فقال : « فيها امر النصارى بلبس السواد . . . وان يشدّوا الزنانير[3] ». ولا يتضح من هذه الرواية هل كان السواد يعم الاثواب والملابس كلها ام كان منحصراً في الزنانير والعمائم فقط .

وبعد مقتل الحاكم خفف النصارى الغيار ، اي لبس السواد ، وتبعهم لا شك في ذلك اليهود « واقتصر الاكثرون على لبس زنار وعمامة سوداء[4] ». ويظهر انهم عادوا بعد ذلك الى اتخاذ ما شاؤوا من الالوان ، الى ان كانت سنة ٦٥٩ للشهداء (١٢٤٣م) وفيها « كان النصارى في مصر في ضائقة من قِبَل القاضي حتى انه كأنّ الناس ان من كان ثوبه ابيض يجعل زناره ازرق او اسود او لوناً يخالف الابيض وان كان ثوبه اسود او ازرق فيكون زناره ابيض واخذ جماعة بذلك فكان العوام اشد من هذه الامور كلها . ولم يكن في القاهرة شيء من هذا[5] » يريد ان النصارى واليهود لقوا من عوام المسلمين عنتاً واضطهاداً

(١) *Voyage de Georges Langherand...* (1485-86). Mons 1861 notes

(٢) كتاب الذيل ٢٠٠

(٣) الخطط ، بولاق ، ٢٨٧

(٤) كتاب الذيل ٢٢٨

(٥) سير البطاركة لابن المنفع ٤٢٤

في اختيار الملابس والالوان ، اشدّ من عنت مخالفة الالوان نفسها ، ومن الغريب ان تكون احكام القضاة في مصر لا يعمل بها في القاهرة.

ولا ريب ان حجة القاضي في هذا التلوين ان يكون الزنّار بيّناً مميزاً ينم على ذميّة حامله بمجرد النظر اليه ، لئلا يظن انه مسلم فيوقّر . وقد اخطأنا التوفيق ، فلم نعثر ، في كل ما طالعناه ، على اقل اشارة الى الوان زنانير النساء في اوقات السلامة والرخاء والمباهاة بالازياء . ولا نشك انهن كنّ يتزيّنَ بالخز والوشي والديباج ، ويتفنّنَ في التزيّن ، ايام الاعياد والمواسم ، بكل ادوات الزخرفة ورسوم النقوش والكتابة ، كالزنار الذي وصفه الوشّاء في حسناء دار الروم ببغداد.

٨ ـ الاوامر السلطانية بشد الزنار

حكى السيوطي ان ابن السلعوس ، وزير الملك الاشرف بن قلاوون ، كان يكره تقي الدين عبد الرحمن ابن القاضي تاج الدين ابن بنت الاعزّ ، « فعمل ورتب من شهد عليه بالزور بامور عظام . . . واحضروا من شهد بانه يحمل الزنار في وسطه فقال القاضي : ايها السلطان . . . حمل الزنار لا يعتمده النصراني تعظيماً ولو امكنه تركه لتركه فكيف احمله ؟ » وقد اثبتنا ملياً ان الزنّار في نظر الشارع سمة للذل والصغار ، ولذلك كان هم النصارى اهماله واطراحه كلما وجدوا اليه سبيلاً ، فكانت الاوامر السلطانية ترد عليهم من حين لآخر مشددة بالرجوع الى الشروط العمرية . وقد جمعنا منها كل ما تيسر لنا العثور عليه ، اثناء مطالعاتنا في اسفارنا من اخبار الزنار ننقلها هنا على ترتيب تواريخها . وقد فاتنا لا محالة نظائر لها واشباه لاهمال المؤرخين الاحاطة بكل ما جاء منها واستقراء كل ما خصّ الزنار ، في جملة الحوادث والوقائع النصرانية واليهودية التي ذكر فيها الغيار خاصة ، وهو يتناول احياناً الزنار والعمامة ايضاً في ما عدا الرقاع ، وهما نوع من انواع الغيار.

---

١) حسن المحاضرة ٢ : ١١٢

« سنة ١٩١ (٨٠٧ م) فيها امر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور واخذ اهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم »(١

« سنة ٢١٠ (٨٢٥ م) وثب ابرهيم بن عائشة (بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس) في جماعة معه . . . فدوّنوا الدواوين واثبتوا اسماء الرجال وسمّوا العمال فظفر به المأمون بحمص في المطبق فاحتال ابن عائشة اهل المطبق حتى حملهم على الوثوب وان يشهروا وتنصروا وشدوا الزنانير في اوساطهم والصُلُب في اعناقهم . . فركب المأمون الى المطبق . . . ودعا بابرهيم فضرب عنقه »(٢

« سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) امر المتوكل اخذ النصارى واهل الذمة بلبس الطيالس السلية والزنانير . . . وامر باخذ عمالهم بلبس الزنانير وجعلهم لبس المناطق »(٣

« سنة ٣٩٥ (١٠٠٤ م) امر الحاكم بامر الله ان يلبس النصارى واليهود دون الخيارة زنانير في اوساطهم والعمائم السود على رؤوسهم وامتثل ذلك في سائر مملكته »(٤

« سنة ٦٨٢ (١٩٠١ م) خرج توقيع من الخليفة بالزام اهل الذمة لبس الغيار والزنار ودرهم الرصاص المعلق في اعناقهم مكتوب فيه « ذمي » وان تلبس النساء مثل ذلك درهم في خلوقهن عند دخول الحمام ليُعرفن وان يلبسن الخفاف وردًا اسود وفردًا احمر وخلخالًا في ارجلهن »(٥

سنة ٥٦٤ (١١٦٨ م) لما قدم الامير اسد الدين شيركوه وتقلد وزارة الخليفة العاضد شدد على النصارى وامرهم بشد الزنانير على اوساطهم ومنعهم من ارخاء الذوّابة التي تسمى اليوم العَذَبة(٦

« سنة ٩٥٥ (للشهداء (١٢٣٩ م) اتخذ للناس رجل خادم يقال له شيل الدولة خادم النبي وادعى انه رأى نبيّهم في النوم وقال له : حذ الذمة بتغيير حليتهم فانهم قد خرجوا عن حدهم وشرع في ضرب الناس والإحراق بهم من النصارى واليهود فالنصارى يُحزم برفع الذوائب وشد الزنانير واليهود بعمل العلامة الصفراء وصار بعض الجماعة (اي الاقباط) يشد الزنار ويرخي الذوّابة وانتهى الى قطع ذوّابة القس كاتب الخوانجخانة لانه كان ارخاها وشد الزنار وكان اذا لم يجد مع واحد زنارًا قطع عمامته وشد وسطه بها ونودي على ذلك بالاشهار في يوم السبت الخامس عشر من ابيب (٩ يوليو سنة ١٢٣٩ م) ووقع الناس من ذلك في شدة وثقل عليهم لانه شيء قد ببعد عهدهم به منذ عشرين سنة . . . واسلم بهذا السبب رجل من خيار النصارى يقال له الثقة بن الشماس وكان صاحب ديوان الخوانجخانة والبيوت والاصطبلات وديوان الحاشية واخذوه بشد الزنار فشده فاخذوه

(١) الكامل لابن الاثير ، وتاريخ الطبري ، طبعة اوربة ٣ : ٧١٢-٧١٣

(٢) تاريخ اليعقوبي ٣ : ٥٥٨-٥٥٩

(٣) تاريخ الطبري ٣ : ١٣١

(٤) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ١٨٧

(٥) عجائب البدائع لابن الجوزي ١٥٦٧ باريس ٣٦

(٦) الخطط ١٦٠

برفع العذبة فابى فتكاثروا عليه وازروه فرمى الزنار فقالوا : انه اسلم وشهدوا عليه فاسلم وكان النصارى في هذا الوقت في ضيق عظيم وهوان اليم وراي من اقبيم من العامة والسوقة شتمهم وسبّهم ثم ان الامر تحلل في امر العذبة فصار بعض الناس يرخيها لكن بامر استاذ الدار وهم ثلثة انفس الذين رُسم لهم بارخاء العذبة مع شد الزنار ثم انهم اجتمعوا وكتبوا فتاوى واخذوا فيها خطوط الفقهاء في امر الذوّابة من العامة فافتوا جميعهم بانه لا يلزمهم رفعها بل شد الزنار خاصة للتمييز بينهم وبين المسلمين . . .

فلما كان يوم الخلوق(١ اتفق ان الخادم المشار اليه كان في البحر واتفق ان قوماً من النصارى كانوا في مركب في البحر وفيهم من هو مشدود الزنار ومن هو بغير زنار فعرفهم الخادم والصق(٢ عليهم وحملهم الى جمال الدين استادار فسيّرهم الى المحتسب بمصر فحمل الامر على انهم جميعاً بغير زنار فضربوا وشهروا في مصر كلها وكانت قضية شديدة على النصارى وفكمن العوام منهم وكانت بدعة عظيمة »(٣

سنة ٩٥٨ للشهداء (١٢٥٢ م) في هذه الايام نودي بمصر بما حكايته : رسم الشرع ان تشد النصارى الزنانير في اوساطهم وقيل السبب فيه ان حرادة (متولي الجوالي) لانه شكا الى القاضي ان النصارى ما عادوا يعرفون من المسلمين لانهم ما يشدون الزنانير وان الرسل ربما سكروا المسلمين فأمر بهذا النداء فرجع الناس شدوا الزنانير في اوساطهم المشايخ منهم ومن يخاف على عرضه وتسلط العوام على جاري عادتهم »(٤

« سنة ٧٥٥ (١٣٥٤ م) عاد اهل الذمة الى المباشرات فانتدب السلطان الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر لمنعهم من ذلك والزمهم بالشروط العمرية وكتب بذلك مرسوماً شريفاً وبعث بنسخته الى الاعمال فقرئت على منابر الجوامع . . . (ومما جاء فيه :) ان يلزموا زيهم حيثما كانوا ويشدوا زنانيرهم غير الحرير على اوساطهم »(٥

« سنة ٧٦٥ (١٣٦٤م) من مرسوم كتب به عن نائب المملكة الشرقية الى نائب حصن الاكراد بإلزام اهل الذمة بما أُجري عليهم احكامه من امير المؤمنين عمر بن الخطاب :

« واما اهل الذمة فما رفع عنهم السيف الا باعطاء الجزية والتزام الاحكام واخذ عهود أكيدة عليهم من اهل النقض والابرام فليتقدم الجناب الكريم بالزامهم بما التزموه به الفاروق رضوان الله عليه وليلجئهم في كل احوالهم الى ما الجأهم اليه من اظهار الذلة والصغار وتة بر التمل وشد الزنار وتعريف المرأة بصبغ الازار . . . »(٦

---

١) الخلوق نوع من الطيب كان يُطيّب به عمود مقياس النيل حتى بلغ ارتفاع الماء ستة عشر ذراعاً .

٢) يريد بقوله الصق عليهم ادنى مركبه من مركبهم حتى بانه والصق به .

٣) سير البطاركة ٣٩٢ - ٣٩٣

٤) » » » ٤١٨

٥) صبح الاعشى ١٣ : ٣٢٨ - ٣٨٧

٦) صبح الاعشى ١٣ : ٣٠ - ٣٢

العمائم في الاسلام

١ ـ اوصاف العمامة وازيائها

ذُكرت العمامة عند ابي الاسود الدؤلي فقال: «جُنّة في الحرب ومكنة من الحر ومدفأة من القر. ووقار في الندي وواقية من الاحداث وزيادة في القامة وهي تمدّ من عادات العرب[1]». واملح ما في هذا الوصف قوله: «زيادة في القامة» لعظم ما بلغته العمامة في الحضارة من الارتفاع والاتساع، كما سيأتي من اخبارها. ولذلك عُدّت وقارًا في المجلس، ولا سيما اذا تناهت منها حلقات دائرة تطلّ على لحىً عظيمة تفترش الصدور وتملأ الابصار هيبة وجلالًا، وتفغم الانوف بطيب ما ضُمّخت وحُشيت به من مسك وغالية.

وكان النصارى يأتنون غالبًا بالمسلمين في عمائمهم. وكانت لهم احيانًا عمم خاصة، كما كانت لسائر طبقات الناس في ايام الخلافة العباسية قال الجاحظ: «للخلفاء عمة وللفقهاء عمة وللبقالين عمة وللاعراب عمة وللصوص عمة وللابناء عمة وللروم عمة ولاصحاب التشاجي عمة[2]». وقد اغفل عمدًا او سهوًا عمم اهل الذمة وفاتنا اذة معرفة ما كان الفارق بين كل هذه العمم، وكيف كانت تُكوَّر او تشدّ كل منها، وما كانت تمتاز به من طول وعرض ولون وصبغ ولفّ وتكوير، ومن اي نسيج كانت تؤخذ من بزّ او خزّ ووشي او شرب وابريسم او حرير، وهل سبق للاشراف من الهاشميين الطالبيين لون خاص منها في غير السواد العباسي، قبل ان يمتازوا بالعصابة الخضراء في دولة الاشرف شعبان من ملوك المماليك. وقد حرمنا بالاجمال علم وصف الازياء من رجال ونساء منذ الهجرة واختلاط العرب بالروم والفرس الى استيلاء الاتراك العثمانيين على مصر والشام والعراق، فلم يتهيّ الينا الا لمحات بارقة بدرت من الاقلام عرضًا لا يصحّ ان يُبتّ معها حكم، او يستقرّ فيها رأي، لاقتصار اصحاب المعاجم على تفسير الفاظ اللغة من الملبس والمفرش بقولهم: «نوع من الثياب معروف».

---

١) البيان والتبيين للجاحظ ٣ : ٨٢ — ٨٣

٢) البيان والتبيين ٣ : ٧٨ — ٧٩

دون ان يتكلفوا له اقلّ نعت او شرح ، كما فعلوا في اكثر مرافق الحضارة في الاسلام ، فخفيت عنا اخبارها واوصافها واصبحنا اليوم في عجز عن المباهاة بطرائفها وتعداد فنونها.

ولولا علم الحديث وما ألّف لاجله من فقه وتفسير ، افاتنا ايضاً هذه البقية الباقية في الشرع من اوصاف العمة . وكان فيها نوعان : التلحي والاقتعاط . وفسروا التلحي بانه جعل بعض العمامة تحت الحنك ، والاقتعاط شد العمامة على الرأس من غير ادارة تحت الحنك[1] . وأمر بالتلحي ونُهي عن الاقتعاط . روى ابن وهب عن مالك انه سُئل عن العمامة يعتمّ بها الرجل ولا يجعلها تحت حلقه ، فانكرها وقال انه من عمل القبط[2] .

والمشهور من اوصاف العمم ثلاثة : الطابقية ، والميلاء ، والقفداء . والعمة الطابقية هي الاقتعاط اي ان يتعمم ولا يدير تحت الحنك ، والميلاء نوع ذُكر في كتب اللغة ولم تبين صفته[3] ، روي ان محمد بن سعد بن وقاص الذي قتله الحجاج كان يعتم الميلاء قال الفرزدق :

ولو شهد الجبل ابن سعد لقنّعوا عمائمه الميلاء عضباً مهنّدا[4]

والقفداء من العمم التي تُعقد في القفا ، ولا تُرخى فيها الذؤابة[5] . والسنة في العمامة ان يُسدل طرفها ان شاء بين يديه ، وان شاء بين كتفيه[6] . واكثر ما كانت تُرسل الذؤابة بين الكتفين ، وكان يقال لها العَذَبة ايضاً . وكان الاقباط يحرصون اشد الحرص على التشبه بالمسلمين في اسدال طرفها على الظهر كما تقدم من اخبارهم في الكلام على الزنار . ولما قدم الامير اسد الدين شيركوه وتقلّد وزارة الخليفة العاضد بمصر ، شدّد على النصارى وامرهم بعقد الزنار في اوساطهم ، ومنعهم من ارخاء الذؤابة . فكتب المهذب زكريا ابن ابي المليح كاتب ديوان الجيش لاسد الدين :

١) النهاية لابن الاثير ٣ : ٢٦٧ و ٤ : ٥٤ ؛ والتاج ٥ : ٢١٠ و ١٠ : ٢٢٤

٢) الاحاديث الحسان في فضل الطيلسان لجلال الدين السيوطي ، مخطوط عندنا .

٣) قاموس الفيروزابادي ٤ : ٥٢ ، واللسان ١٤ : ١٦٠

٤) البيان والتبيين ٣ : ٧٨ — ٧٩

٥) التاج ٣ : ٤٧٤

٦) كتاب المدخل لابن الحاج ١ : ١١٧

يا اسد الدين ، ومن عدله يحفظ فينا سنّة المصطفى ،
كفى غيارًا شد اوساطنا ، فما الذي اوجب كشف القفا ؟

فلم يسعفه بطلبته وعندما ايس من ذلك اسلم[1]. وقد روينا في جملة اخبار الزنار ان الثقة ابن الشماس ، صاحب ديوان الحوائج والبيوت والاصطبلات وديوان الحاشية ، لما اخذته العامة بشدّ الزنار وشدّه ، والحّوا عليه برفع العذبة فابى ، تكاثروا عليه ، فرمى زناره وشهدوا عليه بالاسلام فبذّل دينه فداء لعذبته . ومن الغريب الذي لا يقضى منه العجب ان يتفق بعض جلّة الاقباط على ايثار ذؤابة العمامة ، التي لا مزية لها الا التقليد ، على مزية الدين الذي رضعوا لبانه وشبّوا وشاخوا عليه . فهل كانت العذبة عند الاقباط عذبة الى هذا الحدّ حتى يبذوا الدين من اجلها نبذ النواة ؟

ولا شك انه كانت ، في ما عدا انواع العمة الثلاثة التي ذكرناها ، انواع اخرى تختلف بحسب اختلاف البلدان والشعوب . وما فتئت الخواطر تعمل عملها في تطوير العمامة وتكويرها حتى غلب الشذوذ على بعضها ، وبلغت حدّ الاغراب والسخف . وربما علق باحدهم لقب من صفة عمائهم كالواعظ شمس الدين محمد بن عمر بن حماري الظفاري اليمني المتوفى في القاهرة سنة ٧١٠ (١٣١٠م) قالوا كان يتعمم بعمامة كأنها أبلوج السكر ، فاشتهر لذلك بالابلوج[2].

ويستدل من بعض الاقوال ان العمائم ، في ايام بني امية ، كانت تتخذ عند الخاصة والمتأنقين من جنس الثياب قالوا : دخل سرة سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب على هشام بن عبد الملك وعليه عمامة تخالف ثيابه فقال هشام : كأن العمامة ليست من الثياب ؟ قال انها مستعارة[3].

وفي ايام العباسيين والفاطميّين كانت العمائم لا تُخلع الا في عزاء الخلفاء ، - حدّث محمد بن عباد المهلبي قال : « لما مات ابو عيسى بن الرشيد دخلت الى المأمون وعمامتي على فخلعت عمامتي ونبذتها وراء ظهري والخلفاء لا تعزّى في العمائم[4] ».

١) الخطط ٢ : ١٦٠
٢) جزء من ذيل الجواني على ابي عامة ، ليدن (د) Oral. 1700()
٣) الكامل للمبرد ١ : ٢٧٥ - ٢٧٦
٤) الاغاني ٩ : ٩٧

وفي سنة ٣٦٤ (٩٧٥م) « مات الامير عبدالله بن المعز وجلس المعز للتعزية ودخل الناس بغير عمائم واظهروا الجزع[1] ».

٢ طول العمائم وعجمها

كانت العمامة سبعة اذرع ونحوها ، يخرجون منها التلحية والعذبة ، على ما نقله الطبري . ولكن كثيراً ما كانت تتجاوز هذا الذرع ، كالعمائم الشرب التي كانت تعمل في دبيق من قرى دمياط ، ويكون كل عمامة منها مئة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب فتبلغ العمامة من الذهب خمس مئة دينار سوى الحرير والغزل . وحدثت هذه العمائم وغيرها في ايام العزيز بالله سنة خمس وستين وثلاثمئة (٩٧٥م) ، الى ان مات في شعبان سنة ست وثمانين وثلاث مئة (٩٩٦م)[2].

ولا حاجة الى القول ان مثل هذه العمائم المثقلة الغالية كانت نصيب الخلفاء والوزراء والاغنياء وحدهم . واما عامة الناس فكانوا يقنعون بدونها ذرعاً وقيمة . وقلّ جداً من خرق المعتاد بطول عمامته وزنة قبعه كالشيخ شمس الدين الرومي القاهري المتوفى سنة ٨٥٥ (١٤٥١م) قالوا: « كان طوالا كبير اللحية زنة قبعه نحو عشرة ارطال بالمصري وعمامته ازيد من ثوب بعلبكي حفظاً لدماغه وعينيه[3] ». والثوب البعلبكي لا يقل عن ثلاثين ذراعاً.

ومن اشتهر بكبر عمامته قاضي الاسكندرية عماد الدين الكندي قال ابن بطوطة : « كان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أرَ في مشارق الارض ومغاربها عمامة اعظم منها رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب[4] » وقريبٌ منه القاضي الاعز محمد بن هبة الله بن خلف التيمي المتوفى سنة ٥٣٢ (١١٣٧م) اكثر ابن منير الطرابلسي هجاءه لطول عمامته . وله فيه من قصيدة :

---

١) تاريخ ابن ميسر ٤٦

٢) الخطط ١ : ٣٦٥

٣) التبر المسبوك للسخاوي ٢٧٤

٤) رحلته ١ : ١٠

هو قاضٍ كما يقول ، ولكن ما عليه من القضاء علامة
همّة غلاّ القضاء عليه ، فوق وجه كعُشر عشر القُلامة
ويليها من التصاوير ما لم يجمع القدس مثلها والقُمامة[1]

ومن مُلح هجاء العمامة الضخمة على الرأس الصغير قول بعضهم:

في رأسه عمامة ملفوفة مزمّلة ،
كأنها في رأسه ، قدر على سفرجلة[2]

واخص من عرفوا دائماً بكبر عمائهم ، والولع باتخاذ كل واسع وطويل خارق حيّاً للتميز والتعاظم ، القضاة حتى اضحوا احياناً هزءاً وسخرية للناس قال ابن الحاج : « ان بعض المخايلين من اهل اللهو واللعب اذا عملوا الخيال بحضرة بعض العوام وغيرهم في بعض الاوقات يخرجون في اثناء لعبهم لعبة يسمونها لعبة القاضي فيلبسون زيه من كبر العمامة وسعة الاكمام وطولها وطول الطيلسان فيرقصون به ويذكرون عليه فواحش كثيرة ينسبونها اليه فيكثر ضحك من هناك ويكثرون التقوط عليهم بسبب ذلك[3] ».

وكان كلما ازداد طول العمامة ازداد بالضرورة ثقلها . وحكي عن عبد المحسن بن محمد الصوري ، احد شعراء اليتيمة ، ان « بعض الامراء اعطاه عمامة حسنة فلبسها اياماً ثم باعها ولبس عمامة لطيفة ومشى فقال بعض من رآه ثقلت عليه العمامة فباعها فقال ارتجالاً:

قالوا : عمى ثقلت عليـــــه فباعهـا من غير عُدم
والله ، مـا ثقلت عـــــليّ عمامتي ، بل خفّ كيسي[4]

اي فرغ كيسي.

وبقيت عادة تكوير العمائم الكبار الى ايام الاتراك العثمانيين . فكان الوزراء لا يُقابلون الا بهـا ، لضمّة العمائم الصغار وانحطاطها في نظرهم . وفي الشقائق النعمانية « ان المولى يوسف بن حسين الكرمانيني المتوفى في حدود

١) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٤ : ١٠١
٢) حكاية ابي القاسم الطنبوري ؛
٣) المدخل ١ : ١٣١ – ١٣٢
٤) يتيمة الدهر ، طبعة القاهرة ، ١ : ٢٥٧

النعمانية (٩٥ – ١٤٩٤م) ذهب يوماً الى المسجد بعمامة صغيرة . ولما خرج من المسجد طلبه الوزير ابرهيم باشا لمصلحة اقتضت حضوره فلم يبدل عمامته خوفاً من ترجيح جانب الوزير على المسجد . فلما رآه الوزير على تلك الهيئة سأله عنها فقال في جوابه: حضرت لخدمة الخالق بهذه الهيئة ولم اجد في نفسي رخصة في تغيير الهيئة لاجل الوزير[1] .

وكان الفرزدق يؤثر العمائم الضخمة قيل : دخل النصيب الشاعر على سليمان ابن عبد الملك وعنده الفرزدق فاستنشد الفرزدق . . . فانشده . . . وعمامته على رأسه مثل المنسف[2] ولا شك ان هذا التهويل كان عاماً شاملاً اكثر الخاصة وبعض العامة من المشرقين ، كالاطباء المتبسطين في الاسواق لعلاج المرضى ومن النكت المروية في هذا الباب ان بعض الحاكة جاز على طبيب فرآه يصف لهذا النقرع ولهذا الثمر الهندي فقال : من لا يحسن مثل هذا ؟ فرجع الى زوجته فقال: اجعلي عمامتي كبيرة فقالت : ويحك اي شيء طرأ لك ؟ فقال : اريد ان اكون طبيباً .

٣ – عمائم النساء

كان النساء يتعممن كالرجال . وفي حديث عن ابي هريرة وصف نساء كاسيات عاريات محولات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة[3] اشارة دون ريب الى كبر العمائم والعصائب التي كان النساء يتخذنها احياناً . وفي خبر يوم الدوحة الذي حكاه عمر بن ابي ربيعة صفة فتاة في زيّ غلام ، وعليها عمة خز سوداء[4] . ولما زار ابن بطوطة القسطنطينية قال : والنساء لهن عمائم كبار[5] . وفي سنة ٦٤١ (١٢٤٣م) « انفذ محيي الدين يوسف بن الجوزي رسولاً الى ملك الروم كيخسرو بن كيقباذ فاجتمع به في انطالية فلما عاد حكى اشياء غريبة

١) الحدائق النعمانية ، جامش وفيات الاعيان ، ٢١٧

٢) الاغاني ، طبعة الدار ، ١ : ٢٢٦ – ٢٢٧

٣) صحيح مسلم ٢ : ١٦٧

٤) الاغاني ، طبعة برلاق ، ١٠ : ٥١

٥) رحلته ١ : ٢١٦

منها ان النساء يتعممنَ كالرجال... وعمائم النساء تختلف في الكبر والصغر لأن المرأة اذا جاءت بولد تممت بعمامة طولها ستة اذرع وكلما جاءت بولد زادتها ستة اذرع وذراعهم ذراع ونصف بذراع بغداد[1] ».

وما برحت المرأة تقلد الرجل في تكبير العمامة وتكويرها ، حتى اضطر الملوك والامراء والولاة الى تهديدها بالعقاب.

وفي سنة ٦٦٢ (١٢٦٣م) امر الملك الظاهر بيبرس « بان ينادى في القاهرة ومصر بان امرأة لا تتعمم ولا تتزيا بزي الرجال ومن فعلت مثل ذلك بعد ثلاثة ايام يُسلَب ما عليها من الكسوة[2] ».

وفي سنة ٦٩٠ (١٢٩١م) « رسم نائب السلطنة بدمشق ان لا ترجع امرأة تلبس عمامة كبيرة ومن خالفت المرسوم غلظت عقوبتها فامتنع النساء من ذلك على كره منهنّ[3] ». ورجعن الى عادتهنّ القديمة باتخاذ المقانع عملاً بامر النائب الامير علم الدين الشجاعي[4].

وبقيت عادة التعمم بين النساء ومحاكاة الرجال الى ما بعد القرن العاشر للهجرة ، كما يستفاد من كتاب « نسمات الاسحار في نُبذ من كرامات الاولياء والاخيار » لعلية بن حسن الملقب بعلوان الحموي ، رقم ٩٧و٩٨ من مخطوطات الظاهرية بدمشق (تصوّف) . ولكن هذه المحاكاة كانت اكثر ما تكون ، في يظهر بين العرائس ليلة الجلاء . واما في سائر ايامهن فكن يلبسن « الشربوش » او الشاش ويسمونه ايضاً « المُقنَّع » يكون اوله على جبين المرأة وآخره على ظهرها فمنه ما يبلغ طوله ممتدًا نحو الذراع في ارتفاع دون الربع الذراع[5]. ويشبه ان يكون هو الذي شبّهه الحديث السابق الذكر باسنمة البخت . ومن الغريب الجدير بالتنبيه عليه ان الماشطة كانت تذهب بالعروس بعد الجلاء الى

---

١) الحوادث الجامعة للفوطي ، الخزانة التيمورية ، ٨٨

٢) سيرة الملك الظاهر لمحيي الدين بن عبد الظاهر ، خزانة بريتش موزيوم لندرة Add 23331 f° 7

٣) تاريخ حوادث الزمان وانبائه للجزري ، ٦٧٣٩ باريس ، ٢١ - ٢٢

٤) ذيل اليونيني ، لندرة Add. 25728 f° 36

٥) السلوك للمقريزي ، ١٧٢٧ باريس ، ١٥٢

بيت « وتخلع عنها تلك الهيئة وتفرغ عليها ثياباً غير تلك الثياب وتلبسها عمامة كعمامة القاضي والفقيه والجندي وتمسك سيفاً مسلولاً ... » الى آخر ما هنالك من الفصل الممتع الذي يلذّ جدًا الوقوف عليه لما تضمنه من وصف الاخلاق والعادات السالفة[1].

وكانت النساء المسيحيات يقلّدن المسلمات في كل هذه الازياء الغريبة، كلما وجدن اليها سبيلاً.

٤ ــ الوان العمائم

كانت العمائم في ايام الامويين تكون غالباً من جنس الثوب، كما سبقت الاشارة اليه من كلام هشام بن عبد الملك. واما في ايام العباسيين فقد غلب عليها لون شعار الخلافة وهو السواد. واكثر ما كانت تكون من الخز واما اذا استثنيت ايام الاحتفالات وجُمَع الصلاة، فكانت تتخذ من كلّ الالوان والمنسوجات. وفي الاغاني ان الرشيد « هبّ ليلة من نومه ... وخرج في دراعة وشي متلثماً بعمامة وشي[2] ». ومعلوم ان الوشي يجتمع فيه الاحمر والاصفر والاخضر وسائر الالوان[3] وفي ايام سليمان بن عبد الملك عُمل الوشي الجيد ولبسه الناس جميعاً جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس[4] وفي زمان الفاطميين كانت عمائم الشرب المذهبة لباس الخلفاء والوزراء واصحاب الثراء. وقد ذكرنا في ما تقدم ان الواحدة منها كانت تبلغ خمسمائة دينار. ومن المدن المصرية التي اشتهرت بها دبيق. وكانت تعمل ايضاً من الشرب الملوّن. وعمّت بين الملوك والوزراء عادة اتخاذ العمائم الملونة. ولما قتل امير الجيوش الافضل شاهنشاه بمصر، وُجد في تركته « عشرة مسامير من الذهب زنة كل مسمار مائتا مثقال عليها العمائم المختلفة الالوان مغطاة بالمناديل المزركشة[5] ». ولعمارة اليمني الشاعر

١) طالع هذا الفصل في كتابنا « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » ٥٤ – ٥٨
٢) الاغاني ٥ : ٣٠
٣) مروج الذهب، جاشن الكامل، ١٠ : ٢٤
٤) مروج الذهب ٧ : ١٠٨ – ٩ : ١
٥) غاية الارب للنويري، خزانة ليدن Arab. 2 gol. 126

ابيات استهدى فيها محمد بن شمس الخلافة وهو بدمياط عامة شرب وصفها بقوله :

كأن بياضها وجه بقي ، وحسن الرقم فوق الخد شامة(١

واشتهر اهل سجستان بالإغراب في العمائم. ولعلهم انفردوا بها فانهم كانوا « يعتمون بثلاث عمائم او اربع كل واحدة لون ما بين احمر واصفر واخضر وابيض وغير ذلك من الالوان على قلانس لهم شبيهة بالمكوك ويلفونها افاً يُظهر الوان كل واحدة منها واكثر ما تكون هذه العمائم من الاربيسم طولها ثلاثة او اربعة اذرع(٢) ».

وفي سنة ٧٧٣ (١٣٧١م) امر السلطان الاشرف شعبان ان يمتاز الاشراف من الناس بعمائم خضر على العمائم . وفي ذلك يقول شمس الدين بن بركة الدمشقي المزين :

اطراف تيحان انت من سندس خصر باعلام على الاشراف
والاشرف السلطان خصهم بها شرفاً ليفرقهم عن الاطراف(٣

٥ ــ عمائم النصارى واليهود

كلّ من تكلم قديماً على احكام اهل الذمة في ديار الاسلام ذكر انها وجبت عليهم « ليقع التفريق بين الكافر الذي تجب معاداته وبين المسلم الذي تجب موالاته ولا يكون ذلك الا بالزي(٤) ». وليس بين كلّ امارات الزي ما هو امثل للعيون واشدّ ظهوراً من العمامة ، لان الزنار فضلة قد تُطرح او لا تبين جلياً لاول نظرة ، خلافاً للعمامة فانها واجبة ظاهرة على كل حال. ولذلك كانت اهم العلامات البادية لكل الابصار ، وعليها عوّل الشرع خصوصاً للتمييز بين المسلم والذمي. ولا يُدرى في الصحيح متى بدأ هذا التمييز فعلاً . ولعلّ الارجح ان اول ما نجمت عروقه وراجت سوقه بين القرن الثالث والرابع للهجرة ،

١) النكت العصرية ٢٩
٢) معجم البلدان ٣ : ٤٢
٣) ابناء الغمر في ابناء العمر للشهاب المستقلاني ١٦٠١ باريس ٢
٤) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله للفراء ١ و٢

لاننا لم نظفر بقول فيه ورد لاحد المتقدمين قبل المئة الثالثة ، ولم يُشر احد الى نوع هذا التمييز هل كان في الهيئة والشكل ام في اللون ، وهل كان واحداً لكل الذميين . ولذلك يتعذر علينا اليوم ان نعين الزمن الذي بدأ فيه تلوين العمائم للنصارى واليهود للتفريق بينهم وبين المسلمين ، قبل ان يأمر الحاكم الفاطمي بصبغها بالسواد فقط . ولم نقف على ذكر لون لها خاص في اوائل الخلافة العباسية ، والرأي الشائع ان تخصيص الزرقة لعمائم النصارى ، والصفرة لليهود ، والحمرة للسامريين والمجوس ، كان سنة ٧٠٠ (١٣٠١م) . ولكن بعض هذا التلوين كان دون ريب قبل هذا التاريخ . وفي سنة ٥٩٢ (١١٩٦م) كان الملك العزيز جالساً بدار العدل ، فدخل عليه رجل له هيئة حسنة فلما شك العزيز انه من الاشراف . فلما علم انه ذمي « امر ان ينادى في دمشق ان تلبس اهل الذمة العمائم الغيار ليعرفوا من المسلمين[1] » . وقد اغفلوا ذكر لون هذا الغيار ، والارجح انه كان الاصفر ، لان الابيض كان لون عمائم الناس عادةً . ثم انفرد اليهود بالاصفر خاصة قبل تمييزهم بسه بامر سلطاني سنة ٧٠٠ (١٣٠١م) كما يستدل من قول ابن سعيد لما زار القاهرة سنة ٦٣٩ (١٢٤١م) ان اليهود كانوا يعرفون بعمائم صفر ، وقد سبق الاستشهاد بقوله في الكلام على زنار النصارى .

وكان النصارى يتقون دائماً سوء عواقب التمييز عن المسلمين ، وما يجره عليهم من الصغار والامتهان ، ويحرصون اشد الحرص على محاكاتهم وتقليدهم في الظاهر من احوالهم وما امكن من ازيائهم وملبوسهم ، ليأمنوا كل احتقار لهم واستطالة عليهم وعرف الاقباط بالافراط في هذا التقليد حتى في الاختتان احياناً ، واختيار الاسماء والالقاب والكنى[2] حتى اعتادوا ايضاً كتابة البسملة الاسلامية بدلاً من النصرانية[3] ، واتبعوا السنة المحمدية حيث لا يعد اتباعها فرضاً على المسلم نفسه ، كما في ارخاء ذؤابة العمامة كما تقدم . ولما مُنعوا منها

---

١) نهاية الارب للنويري ، خزانة ليدن Arab. 2 gol. F. 214

٢) المجلة الشرقية المشرق ١٩٦٨ ك١-اذار ص١-٢١

٣) طالع كتابنا : الصليب في الاسلام ٥ - ٦

اختاروا انتحال الاسلام لخوفهم سوء مغبّة التميز عن المسلمين بشيء من اللباس قد ينمّ على ملّتهم ونسبتهم . ولكنهم تجاوزوا كل حدّ في هذا التشبه والاقتداء حتى كانوا يحاكون القضاة في تكبير العمائم ، ولبس الفرجيات والجباب بالاكمام الطويلة الواسعة[1] ، بحيث اضطر الولاة الى تحذيرهم وردعهم ، وانشاء المراسيم مرة بعد اخرى بوجوب التزامهم شروط الغيار والصغار ، وتحديد ذرع العمامة لهم وتضييق الاكمام . فكانوا يزدجرون حيناً ثم يعودون الى ديدنهم . وكانت الدواوين السلطانية ملأى بالكتاب والعمال منهم ، فكانوا يعلمون من اين تؤكل الكتف ، ويبذلون كل رخيص وغالٍ للتحرّر من كل قيد وشرط ولذلك تعددت الاوامر ، وتجددت الكتابات والتواقيع في كل عصر في معنى واحد ، وهو ما يدل على انها لم تكن تُتبع دائماً أو لا تلبث ان تضعف وتبطل باحتيال رجال الدولة ومباشريها .

وقد اختلفت اقيسة عمائم الذميين في المراسيم السلطانية بين خمسة وسبعة وعشرة اذرع .

« وفي سنة ٧٥٥ (١٣٥٤م) في جمادى الآخرة منها ألزم اهل الذمة بالشروط العمرية . . . وان لا تزيد عمامة احدهم على عشرة اذرع . . . وكتب بذلك الى المالك الاسلامية »[2] .

ونقل ابن دقماق هذا الخبر في سنة ٧٥٤ .

« وفي سنة ٨٢٠ (١٤١٧م) في ثامن شعبان اجتمع عدة من فقهاء القاهرة عند الامير فخر الدين عبد الغني بن ابي الفرج الاستادار في امر نصراني ادُّعي عليه بما اوجب اراقة دمه . . . وتجاوزوا ما فيه النصارى من كبر عمائمهم ولبسهم الفرجيات والجُبب بالاكمام الطويلة الواسعة كهيئة قضاة الاسلام فنودي بمنعهم من ذلك ومن ركوب الخُمر الفُرّه ومن استخدامهم المسلمين وان يلتزموا الصغار ولا يلبسوا الا عمامة من خمسة اذرع فما دونها »[3] .

« وفي سنة ٨٢٣ (١٤١٩م) في ربيع الاول الزم صدر الدين محتسب القاهرة اليهود والنصارى بتضييق الاكمام الواسعة وتصغير العمائم حتى لا تتجاوز عمامة احدهم سبعة اذرع »[4] .

---

١) السلوك للمقريزي ، خزانة بريتيش موزيوم Or. 2902 f° 45 b

٢) ذيل السخاوي على دول الاسلام ، اكسفرد Marsh. 503 والسلوك للمقريزي ، ١٧٢٧ باريس ، ١٥

٣) السلوك ، اندرة Or 2902 f° 60 a

« وفي المحرم سنة ٨٣٠ (١٤٢٦م) نودي على اهل الذمة ان يصغروا عمائمهم وان لا يدخلوا الحمامات مع المسلمين ومن دخل منهم فليكن في عنقه جنجل او طوق حديد الى اشياء كثيرة اخترعها المحتسب تبعاً لغيره فضجروا من ذلك ورفعوا امرهم الى السلطان فاحضر القضاة في ثالث عشر المحرم وسألهم عما يجب فتقرر الحال ان لا يدخلوا الحمام الا بخيط في رقبتهم ويكون فيه خاتم من حديد او رصاص وان لا يتعرّض لعمائمهم الملونة كبرت ام صغرت . . . »(١) .

« وفي سنة ٨٥٦ (١٤٥٢م) في يوم الثلاثاء ثالث عشري صفر نودي بالقاهرة بانه لا يزيد كل من النصارى واليهود في عمائمهم على سبعة اذرع الكوهم تمردوا في ذلك وزادوا على الحد . . »(٢) .

« وفي سنة ٨٦٨ (١٤٦٣م) نودي بشارع القاهرة ان احداً من الاعيان لا يستخدم ذمياً في ديوانه . . . وقرئت المهود المكتتبة قديماً على اهل الذمة فوجدوا في بعضها ان احداً من اهل الذمة لا يباشر بقلم الديونة عند احد من الاعيان . . . ولا يلف على رأسه اكثر من عشرة اذرع . . . ودام ذلك نحو السنة وعاد كل شيء على حاله ولم السلطان ذلك فلم يتكلم بكلمة واحدة . . . »(٣) .

٦ ــ الوانه عمائم الذميين

لم ترد اشارة الى ما كانت الوان عمائم النصارى واليهود في خلافة بني امية ولا يبعد انها كانت من نفس الملابس في الغالب ، كما يتحصل من كلام هشام ابن عبد الملك . ومن ثم لم يكن يحرم عليهم لون من الالوان الشائعة ، واغلبها كانت كذلك في ايام العباسيين مع تفضيل السواد ، وهو شعار الخلافة . ويتحصل من بعض الاقوال ان لون العمائم عادة في العراق ومصر والشام كان غالباً البياض كما بقي في الكرك والشوبك بين النصارى حتى عنّ للحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ (١٠٠٤م) « ان يلبس النصارى واليهود دون الخيابرة الزنانير في اوساطهم والعمائم السود على رؤوسهم فامتثل ذلك في سائر مملكته »(٤) واعاد هذا الامر سنة ٤٠١ (١٠١٠م) بتغيير الزنانير التي يلبسونها ، والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط ، دون غيرها من الالوان والعمائم السود(٥) » . وخفّف الغيار بعد موته ، واقتصر الاكثرون على لبس زنار وعمامة سوداء .

١) إنباء الغمر للعسقلاني ، ٤٠٦٣ ، ١٥٤
٢) التبر المسبوك للسخاوي ٢٠٦
٣) النجوم الزاهرة ، طبعة ليدن ، ٧٢١ ــ ٧٢٢
٤) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ١٨٧ ٥) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ٢٠٠

وانما اختار الحاكم السواد للباس النصارى واليهود ، لانه كان شعار العباسيين فاراد اذلاله والحطّ منه ايضاً بتخصيصه باحقر قوم في مملكته ، في اعتباره ، وهم اهل الذمة الذين رسم الشرع الاسلامي جباههم بالذل والصغار.

ومن الابيات التي أشير فيها الى بياض عمائم الذميين قول احد ادباء الكوفة في علام نصراني:

كأنما عقد الزنار فوق نقاً واعتمّ فوق دجى الظلماء بالنور(١)

وقد نصّ غير واحد من المؤرخين على ان تشهير العمائم بالزرقة والصفرة والحمرة كان في شعبان سنة ٧٠٠ (١٣٠١م) ، اجابة لطلب وزير مغولي حضر في عرض رسالة ، فرأى حال اهل الذمة وترفهم ومباهاتهم ، فانكره واتصل نكيره بالسلطان ، فامر بجمع الفقهاء للنظر في الحدود التي تقف عندها اهل الذمة فاجمع الملأ منهم على تعيين الزرقة للنصارى ، والصفرة لليهود ، والحمرة للسامريين(٢) . وفي ذلك يقول علاء الدين الوداعي:

لقد ألزم الكفار شاشات ذلّة تربدم من منة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عمائماً ولكنهم قد ألزموكم براطيشا(٣)

وارتى عليه الشيخ شمس الدين الطيبي في المجاملة واللطف فقال :

تعجبوا للنصارى واليهود معاً والسامريين لما عمّموا المِرقا
كأنما بات بالاصباغ منهلّا نمر السماء فاضحى فوقهم ذرقا(٣)

وقذفهم ابن حبيب في النار فقال:

عمائم اهل الذمة البُهت اشبهت ثلوناً ما يقضي عليها من النار
فاصفر يتلو احمرًا بعد ازرق سمات انت بالخزي والذل والعار(٤)

قال النويري:

وتقرر بدمشق ان لابس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر واستمر ذلك في سائر المملكة الا بالكرك فان النائب بها جمال الدين أقش الاشرفي رأى ابقاءهم على حالهم واعتذر ان اكثر اهل الكرك نصارى وان المسلمين بها قليل وان هذا

(١) مسالك الابصار للعمري ٢١٢
(٢) العبر لابن خلدون ٥ : ٤١٦ والبداية والنهاية لابن كثير ١٤ : ١٦
(٣) المنهل الصافي لابن تغري بردي ، ٢٠٧٣ باريس ٣٠٠
(٤) درة الاسلاك في دولة الاتراك ١٧١٩ باريس ١١٠

العدد يؤدي الى ظهور كثرتهم للتريب وما اشبه هذه الاعذار فاستقر ذلك بالكرك والشوبك الى الآن واخبرني سيف الدين بليان الجوكندار في سنة احدى وسبعمائة (١٣٠٢م) وهو يومئذ استاذ الدار السلطانية وشاد الدواوين بدمشق قال : ركبت في الموكب مع الامير جمال الدين اقش الافرم نائب السلطنة بما قرر ما طائفة من اهل الذمة بالاقشة النفيسة والعمائم اللاتس قال فشق علي كونهم لم يتميزوا علامة فذكرت ذلك لنائب السلطان وقررت معه ان يأمر بتغيير هيئاتهم وان تلبس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر وتقرر ان يطالع في ذلك فورد مثال السلطان بذلك قبل وصول المطالعة وراقني تاريخ تلبيسهم بالديار المصرية التاريخ الذي حدثت نائب السلطنة فيه تلبيسهم ١ .

ولا يخفى ما في هذه الشهادة من القدر والشان في تاريخ نصارى الكرك والشوبك .

وقال المقريزي بعد شرح ما سبق :

« وقدم البريد في امر الذمة الى دمشق يوم الاثنين سابع شعبان (١٧ ابريل = نيسان ١٣٠١) فاجتمع القضاة والاعيان عند الامير اقش الافرم وقرئ عليهم مرسوم السلطان بذلك فنودي في خامس عشريه ان يلبس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر والسامرة العمائم الحمر وهددوا على المخالفة فالتزم النصارى واليهود بسائر مملكة مصر والشام ما أمروا به وصبغوا عمائمهم الا اهل الكرك فان الامير اقش الاشرفي اعتذر بان اكثر اهل الكرك نصارى فلم يغير اهل الكرك والشوبك من النصارى العمائم البيض .

« وبقيت الكنائس بارض مصر مدة سنة مُغلقة حتى قدمت رسل الاشكري (Escaris) ملك الافرنج يشفع في فتحها ففتحت كنيسة المعلقة بمدينة مصر وكنيسة ميكائيل الملكيين ثم قدمت رسل ملوك أخر ففتحت كنيسة حارة زويلة وكنيسة نقولا . . . واتفق ان بعض النصارى فتح كنيسة فأجتمع العامة ووقفوا الى الامير سلار النائب وشكزا النصارى انهم فتحوا كنيسة بغير اذن وان فيهم من امتنع من لبس العمامة الزرقاء واحتمى بالامراء فنودي بالقاهرة ومصر بان من امتنع من لبس العمامة الزرقاء حل ماله وحلّ دمه وحريمه وان لا يُستخدم نصراني عند امير ولا في شيء من الاشغال السلطانية . . . فامتدت ايدي العامة الى اليهود والنصارى فكادوا يقتلونهم من كثرة الصفع في رقاعهم بالاكف والنعال فامتنع الكثير منهم من المشي في الاسواق خوفاً على نفسه »٢ .

وحاول النصارى بعد ذلك ان يرجعوا الى عمائمهم البيض وضعفوا على ذلك مالاً جزيلاً كل سنة فلم يسمع لهم قول ولم ينجح سعي واشار الى ذلك ابن كثير فقال :

---

١) نهاية الارب ١٥٧٨ باريس ، ٢١١ – ٢١٢

٢) السلوك ١٧٢٦ باريس ، ٢٨٢ – ٢٨٣

« سنة ٧٠٩ (١٣٠٩م) تكلم الوزير ابن الجيلي في اعادة اهل الذمة الى لبس العمائم البيض بالعلائم واخذ قد التزموا الديوان بسبع مائة الف في كل سنة زيادة على الجالية فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام وكبار العلماء من اهل مصر والشام . . . »[١]

وبقي اللون الابيض محرماً على النصارى الى ايام الاتراك العثمانيين كما نبه على ذلك القرماني فقال :

« في شعبان سنة سبعمائة أبيحت النصارى واليهود بمصر والشام العمائم الزرق والصفر واستمر الحال الى ان امر السلطان الاعظم المرحوم مراد خان بن سليم في سنة تسعمائة واثنين وثمانين (١٥٧٤م) بعدم لبس العمائم ووعدوا ان يدفعوا في كل عام ليت المال مالاً جزيلاً فلم يرضَ ولم يرجع عن قوله »[٢].

وكان سُفّار الفرنج اذا قدموا لزيارة الاماكن المقدسة يضطرون الى دخولها بالعمائم الملونة وقد اشار الى ذلك احدهم فقال بتاريخ ١٦١٦ — ١٦١٧ ما تعريبه من جملة وصاياه :

« متى وصلت الى اول ميناء او مدينة من مدن الاتراك يجب اتباع عادة ملونة خلا الابيض والاخضر من الالوان فانهما غير مسموح بهما للنصارى »[٣].

وللشعراء اوصاف وتوريات كثيرة في العمائم الزرق والصفر والحمر نذكر منها ما يأتي :

للصلاح الصفدي في غلام نصراني :

البسوه عمامة للنصارى قد حكى اللازورد في اللون عنها
وجلوا طلعة كبدر تمام ليس تحت الزرقاء احسن منها[٤]

وله في مليح قبطي :

رب قبطي تبدّى من بدور التم اشرق
فرقه كالصبح اضحى : وهو بالعمة ازرق[٥]

ولابن المستوفي في مليح لابس عمامة زرقاء :

بامن يدلّ بحسنه وجماله ويذيب قلب محبه بجفائه

---

١) البداية والنهاية ١٤ : ٥٤

٢) اخبار الدول وآثار الاول ١٨٣

٣) B. Parisien : *Voyage de Hierusalem*. p. 75.

٤) مراتع الغزلان للنواجي ٢٨٣ الفاتيكان ، ٢٧

٥) الحسن الصريح في ملاحة مليح (٥١٣٠ ادب) دار الكتب المصرية ، ص ٢١

لم يبقَ شك فيك انسك واحد الفسرين حين لبست ثوب سهاده (١

وللشهاب الحجازي في مليح نصراني:

من النصارى سباني شادن ، وله عمامة كمياء لازورديه
ناديته اليوم قصدي ان ابيضها فقال يا سيدي دعها سوداء (٢

ولسعد الدين بن الشيخ محيي الدين بن عربي:

وغزال من اليهود اتاني ، زائراً من كنيسه او كنائسه
بت احمي الشقيق من وجنتيه ، واشم البهير من انفاسه . . .
من رآني يظنني ، لنحولي واصفراري ، علامة فوق رأسه (٣

وللصلاح الصفدي في يهودي بعمامة صفراء:

حبي يهوديّ مرضت عليه ، وترايدت بي مهجتي الادواء
من لون عمّته ، وكحل جفونه ، لعبت بي الصفراء والسوداء (٤

وله في سامري بعمامة حمراء:

سامريّ سبى جميع البرايا عسال اجملت فيه البهاره
فهو من عمّةٍ واين قوامٍ عصن بان وفوقه جلنار (٥

ولبدر الدين حسن الزغاري مضمناً:

وبي سامريّ مرّ بي بعمامة قد اكتسبت من وجنتيه احمرارها
وردّة دارت بوجه ، كأنما تناولها من خده فـادارها (٦

ومثله قول الشيخ عز الدين الموصلي:

وسامريّ اعـار البدر منه سنًا سـمّره فجماً ، وهذا النجم غرّارُ
تحتّ قامته من تحت عمته ، كأنه عالم في رأسه نـارُ (٧

وكانت التواقيع والوصايا السلطانية التي تعطى من مصر الديّان برئاسة اليهود تتضمن احياناً الامر بالتزام العلامة الصفراء « راية الذلة ». نقل القلقشندي امثلة منها كقوله: « من ركن في امرها الى الاخلاد والاخلال وسكن الى

(١ غرة الصباح في الوجوه الصباح لابن البدري لندرة Add. 23415 f° 42
(٢ جنة الولدان في الحسان من الغلمان ٣٣
(٣ نفح الطيب ١ : ٢ و ٤
(٤ الحسن الصريح ٢٢
(٥ خزانة الادب لابن حجة ٢٩ ؛ والدرر الكامنة للعسقلاني ، طبعة حيدر اباد ٢ : ٢٢
(٦ خزانة الادب لابن حجة ٢٩

الاهمال ولم يرضَ بان راية الذلة الصفراء على رأسه تُشال فألزمه إنكارا وألزمه منها شعارًا[١] ». وقول شهاب الدين العمري : « ليُعلم ان شعارهم الاصفر موجب لئلا يُراق دمهم الاحمر وانهم تحت عَلَم علامته آمنون وفي دعة اصائله ساكنون وليأخذهم بتجديد صبغه في كل حين وليأمرهم بملازمته ملازمةً لا تزال علائمه على رأسه تبين[٢] ». ونظير ذلك في وصية السامريين : « ليُحسِن بحسن السلوك دماتهم التي كانما صبغت عمائمهم الحمر منها بما طُلَّ وأوقد لهم منها النار الحمراء فلم يتقوها الا بالذل[٣] ».

ويؤخذ مما حكاه يحيى بن سعيد الانطاكي ، والنويري ، وابن خلكان ، ان الحاكم بامر الله استثنى الحيابرة من لبس العمائم السود ولم يذكر احد منهم سبب ذلك ، ولا ما كان لون عمائمهم في ديار الاسلام . وكان الحيابرة ذوي بأس وشدة في بغداد ، فهل كانوا كذلك في القاهرة ومصر ؟

وظل التضييق على النصارى باتخاذ العمائم الزرق الى القرن التاسع عشر ايضاً روى كامل الغزي بتاريخ سنة ١٢٢٩/١٨١٣ : « في ثلاثين من ربيع الاول امرت الحكومة النصارى ان يعتموا بعمائم سماوية اللون وان يلبسوا بارجلهم النعال الحمر[٤] ».

V ـ الكلفتات والقلانس المُشهرة

قال رضي الدين الحلبي : « الكَلَوتة ، بفتح الكاف واللام وسكون الواو وبعدها تاءآن ، عمامة ملساء ذات قرنين منعطفين الى اسفل يمنة ويسرة واسمها الصحيح الكلافتة بالفاء وجدته بخط بعض الضابطين من المؤرخين[٤] » قلنا هي المعروفة عند الفرنج باسم Calotte خلا انها عندهم بغير قرنين وقد شُوِّهت هذه الكلفتات في المغرب واتخذت لتمييز اليهود من المسلمين قال عبد الواحد المراكشي :

---

١) صبح الاعشى ١١ : ٣٨٨

٢) التعريف بالمصطلح الشريف ١٤٣ - ١٤٤

٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢ : ٣٣١

٤) در الحبب في تاريخ اعيان حلب ، ٢١٤٠ باريس ، ٥٣ه

« وفي آخر ايام ابي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن امير الموحدين ٥٨٠-٥٩١للهجرة) امر ان يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيره وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من اقدامهم وبدلا من العمائم كلونات على اشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية ايامه وصدرًا من ايام ابنه ابي عبدالله الى ان غيره ابو عبدالله المذكور بعد ان توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فامرهم ابو عبدالله بلبس ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٣١(١٢٣٦م)وانما حمل ابا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزي وتمييزه اياهم به شكنه في اسلامهم وكان يقول : لو صح عندي اسلامهم اتركتهم يختلطون بالمسلمين في انكحتهم وسائر امورهم . ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وحملت اموالهم فيئًا للمسلمين ولكني متردد في امرهم .

ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام امر المصامدة . ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرئون اولادهم القرآن حاذرين على دمائهم وسنتنا والله اعلم ما تكنه صدورهم وتخوي بيوتهم[١] ».

وكان لليهود بالاندلس ايضاً « سمة تشهرهم وشارة تميزهم ليوفوا حقهم من المعاملة[٢] ».

وقد اشتهرت الفلانس في ايام العباسيين بالافراط في الطول والاتساع ، حتى شبهها ابو دلامة في شعر له « بدنان يهودٍ جُلّلت بالبرانس » وكانت تدعم من داخلها بالقصب والعيدان . وغلب عليها هذا الشبه حتى سميت دنّية . واختار القضاة لبسها خصوصاً لزيادتها في المهابة والتهويل . ومن النكات التي ذكرها علي بن سعيد في كتابه جني النحل ان قاضي مصر ابا الطاهر الذهلي « كان في خلافة المطيع يلبس السواد ويضع على رأسه دنّية طويلة تزيد على الدماغ فتحاكم اليه زوجان فبدر من المرأة في حق زوجها كلام فقال لها : اسكتي هذا القاضي هو ابو الطاهر متى زدت من هذا المنى نزع الخف الذي على رأسه وقطّعه على دماغك فقال له ابو الطاهر : ثم يا كذا وكذا الى امة الله من اين لك ان هذا خف ؟[٣] ».

---

(١) المعجب في تلخيص اخبار المغرب ٢٢٣

(٢) النسمة البدرية في الدولة التركية لسان الدين الخطيب ١١

(٣) رفع الأسر ٩٨ ، والتلخيص ٧٧ ، في ذيل كتاب الولاة للكندي ٥٨٧

« وكان زي اهل مصر وجمال شيوخهم واهل الفقه والعدالة منهم لبس القلانس الطوال كانوا يبالغون فيها فامرهم ابن ابي الليث (امير مصر) بتركها وتنعم لباسها وان يتشبهوا بلباس القاضي وزيه . فلم ينتهوا فجلس ابن ابي الليث في مجلس حكمه في المسجد . واجتمع اولئك الشيوخ عليهم القلانس . فاقبل عبد الغني وعطر (غلام ابن ابي الليث) فضربا رؤوس الشيوخ حتى القوا قلانسهم قال عتبة بن سطام: رأيت قلانس الشيوخ وقتئذ في ايدي الصبيان والرعاع يلعبون بها وكانوا بعد ذلك لا يدخلون الى ابن ابي الليث ولا يحضرون مجلسه في قلنسوة »[١].

وفي شروط الذميين نهي عن التشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ، ومن لبسها منهم وجب عليه « تصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون[٢] » . وفي كتاب ابي يوسف يعقوب « لتكن قلانسهم طوالا مضربة[٣] » قال الفراء : يعقد في رأسها علم ليُفرق بينها (اي بين الذمي والمسلم) مخالفاً قلانس القضاة لان عادة قلانس القضاة ان يكون في آذانها شفاشك وقلانس هؤلاء على ما قلنا وقد قيل تكون قلانسهم مضربة لان هذا النوع من القلانس قد كان يختص اهل الذمة بلبسه ويتميزون بها من غيرهم[٤] ».

ولا ريب انه كان هنالك فوارق لم تتصل بنا أدخلت على مرّ الزمان بحيث اصبحت قلنسوة النصراني مثالاً للذلّ والصغار ، وبقيت كذلك في ايام الاتراك العثمانيين . وفي سنة ٩٨٨ (١٥٨٠م) خرج امر السلطان مراد بقتل محمود البواب المعروف بتكوري بلزاي اي الذي لا يعرف الرب « فجمع الوزير حسن باشا ابن محمد باشا نائب الشام اعيان دمشق باسرهم ولما أحضر البواب المذكور امر الوزير بنزع كسوة السلطان منه و لُبس قلنسوة نصراني . قال المحبي بعد ان حكى ما تقدم : كان محمود البواب المذكور . . . بعد ان هرب الشيخ شمس الدين الخطابي الى طرابلس الشام . . . سار البواب وقبض عليه واتى به الى دمشق وعلى رأسه قلنسوة نصراني وفي رجليه القيود وفي عنقه الغل[٥] ».

---

١) كتاب الولاة والقضاة للكندي ٤٦٠

٢) تاريخ الطبري ٣ : ١٢٩

٣) كتاب الخراج ١٥٢

٤) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ١٠

٥) خلاصة الاثر ٢ : ٤١

الغيار

١ الغيار في اللغة والشرع

الغيار مصدر غاير اي خالف . ويطلق في العرف على العلامات والقيود التي وُضعت على اهل الذمة لتشهيرهم وتمييزهم . فيتناول كل ما خالف زيّ المسلمين من ازياء النصارى واليهود ، كالزنّار ، والعمامة ، ورُقَع الدرنريع ، والخيوط الملونة الموضوعة على الكتف ، وكل ما خيط على الثياب الظاهرة مما يخالف لونه لونها ، وما كان يُعلّق في الرقاب عند دخول الحمامات من الدراهم المكتوب عليها « ذمي » ، والخواتم ، والاطراق من حديد او رصاص ، ويجعل احياناً في الاعناق من الجلاجل ، وما كان يمتاز به الرجال من النعال ، والنساء من الاخفاف ، ويوضع على العمائم من الطيالسة السلمية او المقوّرة ، وبالاجمال كل ما خالف العادات والالوان المختصة بالمسلمين وملابسهم .

وقد ورد كثيرًا في الشعر كقول ابي اسحق القيرواني الحنفي في مليح عليه غيار انشده بدمشق سنة ٦٣٠/١٢٣٢ — ١٢٣٣

لما بدا في ثياب خضر ، وابدى عذاره
فقلت غصن وريق بدت به جلناره
قالوا : عليه غيار ، فقلت : مني استعاره (١)

وفي شفاء الغليل : « الغيار هو علامة الكفار كالزنار » . وفي شرح المهذب : « الغيار ان يخيطوا على ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونه لونها . وتكون الخياطة على الكتف دون الذيل والاشبه ان لا يختص بالكتف »(٢) . وهذا التحديد هو الاصل في وضع الغيار . ولكنه عم بعد ذلك كل مخالفة في الملبوس والمركوب ولا سيما في الالوان .

---

(١) المنهل الصافي لابن تغري بردي نسخة ، مصورة عن نسخة باريس في الجامعة العبرية ١ : ٣٦

(٢) شفاء الغليل للخفاجي ١٦٦

وربما شمل الغيار ما خالف بعض العادات والهيئات كجزّ النواصي وعدم ارسال الذوائب ، والركوب على الحمير بالأكف ، وركب الخشب عرضاً من غير تزيين لها ولا قيمة عظيمة ، وما اشبه من الحدود والشروط المستنبطة على توالي العصور .

واهم غيار الذميين بالاجمال الزنار والعمامة لظهورهما لاول نظرة . وقد فصلنا في ما سبق الكلام على كل منهما ، فلا يبقى الا التنبيه على ما عداهما من القيود النصرانية واليهودية على قدر ما تهيأ لنا الوقوف عليه من الاخبار القليلة المروية في كتب التاريخ والادب . وقد اضطررنا الى الاغضاء عما جاء منها في كتب مذاهب الفقه لتعذر الاحاطة بها وتشعب الاقوال في معناها

٢ الاوامر السلطانية بإلزام الغيار

اول ما اتُخذ الغيار ، في ما يظهر ، في ايام عمر بن عبد العزيز ، اذا صحّ ما نسب له من الاوامر في اهل الذمّة وقام على اثره هرون الرشيد في سنة ١٩١ (٨٠٦–٨٠٧ م) « وامر بهدم الكنائس في الثغور وكتب الى السندي ابن شاهك باخذ اهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم »[1] . وقد فاتنا معرفة السبب الذي دعاه الى التفريق بين الذميين والمسلمين في اللباس والمركوب ولم يتعرض احد لذكره مع اهميته . وكذلك سكت المؤرخون عن علة هدم كنائس الثغور . فهل كان فيها بعض عيون للروم يطالعونهم باخبار الاسلام ؟ وقد نصّ الطبري على ان الغيار كان مقتصراً على ذمّي بغداد ، ولم يذكر سبب انحصاره فيهم دون سواهم من اضرابهم في سائر المدن . ويبعد جدًّا ان لا تكون بقية المدن اقتدت بقاعدة الخلافة في التضييق على من خالفهم في دين ومذهب ، والظلم ، كما قيل ، من شيم النفوس ، ولا سيما على من كان معدودًا من جملة الاعداء والكفّار . وقد سكت كتاب المجدل لساري بن سليمان ، من كتّاب النساطرة ، عن كل اشارة الى امر الرشيد تقيّةً لا شكّ او سهوًا .

---

١) تاريخ الطبري ، طبعة اوربة ، ٣ : ٦٧٢–٦٧٣

ويتحصل من المراسيم العديدة ، التي تتابعت منذ القرن الثاني للهجرة في الزام الغيار ، انه كان يبطل مرة بعد اخرى او يزول باحدى الشفاعات ، ثم يتجدد بتجدد الاحن والدسائس . وقد تنوعت اشكاله ، وتبارت القرائح والفنون في التشنيع فيه والإغراب كاوامر المتوكل على الله في تسيير صور الشياطين على ابواب دور النصارى ، وتعليق الصلبان الخشب زنة اربعة اوطال في اعناق الخارج منهم ، والكُرات كرأس العجل في حلوق اليهود ، وما اشبه من نظائر هذه السخافات والاهانات التي كان يُراد بها تشهير الذميين وانزال صنوف الاحتقار بهم والاساءة اليهم .

وهذه اهم ما عثرنا عليه من الاوامر السلطانية في الغيار نذكرها بترتيب تواريخها :

• سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) امر المتوكل اهل الذمة ان يتميزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وتياجم وان يتطيلسوا بالمصبوغ بالعفص وان يكون على عمائمهم (والصواب دراريعهم) رقاع مخالفة للون ثيابهم من خلفهم . ومن بين ايديهم وان يلزموا بالزنانير الغليظة لتياجم كزنانير الفلاحين اليوم وان يحملوا في رقابهم كرات خشب كبيرة وان لا يركبوا خيلًا ولتكن ركوبهم من خشب الى غير ذلك من الامور المذلة لهم المهينة لنفوسهم وان لا يستعملوا في شيء من الدواوين التي يكون لهم فيها حكم على مسلم وامر بتخريب كنائسهم المحدثة وتضييق منازلهم المتسعة فيؤخذ منها العشر وان يُجعل ما كان يتسع من منازلهم مسجدًا وامر بتسوية قبورهم بالارض وكتب بذلك الى سائر الاقاليم والآفاق والى كل بلد وستاق [١] .

ولم نجد احدًا جمع في اخبار هذه السنة ما جمعه ابن كثير من مظالم الذميين . ومنها ما حدث بعد المتوكل استمده ابن كثير من ذاكرته وحفوظه لشدة بغضه للنصارى :

• سنة ٢٣٩ (٨٥٣ م) زاد المتوكل في التغليظ على اهل الذمة في اللباس وأكد الامر بتخريب الكنائس المحدثة في الاسلام [٢]

• وفي سنة ٣٩٥ (١٠٠٤ م) قرئ سجل في الجوامع بمصر والقاهرة والجزيرة بان تلبس النصارى واليهود الغيار والزنار وغيارهم السواد غيار العاصين العباسيين [٣]

---

١) البداية والنهاية ١٠ : ٢١٣ - ٢١٤

٢) البداية والنهاية ١٠ : ٢١٧

٣) الخطط ٢ : ٢٤١

« وفي سنة ٤٠٣ (١٠١٢ م) وقعت فتنة عظيمة في بغداد . . . وطلبت العامة جماعة من النصارى . . . وألزم اهل الذمة بالغيار »(١

« وفي سنة ٤١١ (١٠٢٠ م) أُلزم النصارى الغيار . . . واشتد الغيار واستدعي الجاثليق وقُدّم اليه بالزام اهل الذمة لبس الغيار »(٢

« وفي سنة ٤٢٩ في سلخ رجب (١٠٣٨) جمع الاشراف والقضاة والفقهاء والوجوه الى بيت النوبي واستدعي جاثليق النصارى ورأس جالوت اليهود وخرج توقيع الخليفة في امر الغيار والزام اهل الذمة اياه وكان في التوقيع : « كان الخلفاء الراشدون فرضوا على على اهل الذمة الماهدين حدوداً معقودة على الاستتمار والإخبات والاستكانة والتفرد عن المسلمين اعظاماً للاسلام واهله وما تعرّق على هذه السنّة إغفال واستمر فيها الاعمال اطرحت هذه الطائفة دواعي الاحتراس وتشبهت بالمسلمين في زيهم فرأى امير المؤمنين الابعاد اى جميع اهل الذمة بتغيير اللباس الظاهر ما يعرفون به عند المشاهدة فليلتزم ذلك من وأي امير المؤمنين » فقالوا السمع والطاعة »(٣

« سنة ٤٤٨ (١٠٥٦ م) احتسب ابو منصور ابن ناصر السياري على اهل الذمة والزمهم الغيارات والعمائم المصبوغات وذلك عن امر السلطان فعرفت ذلك عنهم خاتون (زوجة طغر لبك) ومنعت المحتسب »(٤

« سنة ٤٥٠ (١٠٥٨ م) في شهر رمضان تجدد للعوام المتدينين المنسبين باصحاب عبد الصمد الزام اهل الذمة لبس الغيار وحضر الديوان رجل هاشمي منهم يعرف بابن سكرة فخاطب رئيس الرؤساء ابن المسلمة في ذلك وذكر ما عليه اهل الذمة من الانبساط وكلمه بكلام فيه غلظة فاغلظه فكتب الى الخليفة بذلك فخرج ما قوّى امر ابن سكرة وكان ابو علي بن فضلان اليهودي كاتب خاتون فامره ابن المسلمة بالتأخر في داره وان يتقدم الى اليهود واهل المعايش بمثل ذلك وامر ابن الموصلايا النصراني كاتب الديوان بمثل ذلك فانقطعوا عن المعاملات وتأخر الكتاب والجهابذة عن الديوان فبان للخليفة باطن الامر فتشدد فيه ولم يجد ابن المسلمة مساغاً لما يريد فصار اهل الذمة يتسللون ويخرجون الى اشغالهم »(٥

« وفي سنة ٤٧٨ (١٠٨٥ م) خرج توقيع من المقتدي بالله بنقض ما علا من دور بني الحرر اليهود وسد ابواب لهم كانت تقابل الجامع وأخذ عليهم غض الصوت بقراءة التوراة في منازلهم واظهار الغيار على رؤوسهم »(٦

---

١) تاريخ الاسلام للذهبي بريتش موزيوم Or. 49 f° 19b

٢) اخبار فطاركة كرسي الشرق ١١٥

٣) المنتظم لابن الجوزي ، طبعة حيدراباد ، ٨ : ٩٦–٩٧ والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ٤٣

٤) المنتظم ٨ : ١٧١ ؛ والبداية والنهاية ١٢ : ٦٦

٥) المنتظم ٨ : ١٩٠

٦) المنتظم ٩ : ١٧

« سنة ٤٧٨ (١٠٨٥ م) خرج توقيع الخليفة المقتدي بامر الله . . . بالزام اهل الذمة بالغيار »(١

« سنة ٤٨٠ (١٠٨٨ م) في ذي الحجة خرج المرسوم انه قد أُفضي حال يهود بطريق خراسان وبلاد ابن مزيد لا يلبسون غيارًا ولهم شعور كالاتراك ويكنون بكُنى المسلمين فتُقدَّم بخروج من عُيّن من العدول والفقهاء فمضوا نواحي بغداد وقصدوا حلّة ابن مزيد فجذبوها »(٢

« سنة ٤٨٦ (١٠٩٣ م) في رابع عشر صفر خرج توقيع الخليفة بالزام اهل الذمة بلبس الغيار والزنار والدرهم الرصاص المعلق في اعناقهم مكتوب عليه « ذمّي » وان تلبس النساء مثل هذا الدرهم في حلوقهن عند دخول الحمام ليعرفن وان يلبسن الخفاف ردًا اسود وردًا احمر وحاجبًا في ارجلهن وشدد الوزير ابو شجاع في هذا فاجابه المقتدي الى ما اشار به واسلم حينئذ ابو سعيد بن الموصلايا كاتب الانشاء وان اختتن ابو نصر هبة الله بحضرة الخليفة »(٣

« في سنة ٤٨٧ (١٠٩٤ م) وزر لامير الموصل رجل من اولاد الخراسانية فمنّ له ان يلزم النصارى بلبس الغيار بالموصل مثل بغداد فكثر الدعاء عليه . . . وقبض عليه بعد اسبوع وتولى حسابه النصارى وزال الغيار من مدينة السلام وعاد الناس الى ما جرت به عادتهم في يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٩٨ (١١٠٥ م) وكان بقاؤه ١٦ سنة وبعة اشهر وكان زواله بشفاعة ابي الفرج سعيد بن ابرهيم الواسطي القس الراهب وعلى يده رحمه الله تعالى لورده من الخدمة الشريفة الامامية المستظهرية وخدمته للجوانب المحترمة »(٤

سنة ٤٩٨ (١١٠٥ م) في ثاني عشر رجب أُزيل الغيار عن اهل الذمة الذي كانوا أُلزموه في سنة اربع وثمانين ولا يعرف سبب زواله »(٥

« سنة ٥١٥ (١١٢١ م) طولب اهل الذمة بلبس الغيار فانتهى الامر الى ان بذلوا الى الخليفة اربعة آلاف والى السلطان (محمود) عشرين الف دينار وأُحضر الجالوت فضمنها وجمعها »(٦

« سنة ٥٢٥ (١١٣١ م) في رجب أُعيد الغيار على اهل الذمة »(٧

---

١) غاية الارب للنويري ، خزانة ليدن ، دون ارقام [ms] Arab. 19 ؛ والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ١٢٧ و ١٢٧

٢) المنتظم ٩ : ٢٨

٣) المنتظم ٩ : ٥٥

٤) اخبار فطاركة المشرق ١٤٤

٥) المنتظم ٩ : ١٤٣ ، والبداية والنهاية ١٢ : ١٦٤

٦) المنتظم ٩ : ٢٢٨

٧) المنتظم ١٠ : ٢٠

« وفي سنة ٥٩٢ (١١٩٦ م) منع العزيز بن صلاح الدين من استخدام اهل الذمة في شيء من الخدم السلطانية والزموا لبس العيار »[1]

وكان سبب ذلك ان الملك العزيز لما جلس بدار العدل دخل عليه رجل له هيئة حسنة فلما شك العزيز انه من الاشراف فلما علم انه ذمي امر بذلك[2] وبقي سيف العيار مصلتا فوق رؤوس الذميين حتى ما بعد استيلاء العثمانيين على مصر والشام والعراق وكان بعض الولاة الظلمة اذا ضاقت ذات يدهم او هاجت بهم اطماعهم يستدرّون حلوبة العيار كلما امكنتهم الفرص وقد نقل الجبرتي امثلا منها فقال بتاريخ سنة ١٢٠٠ (٧٨٦ م):

« في شوال يوم الاربعاء نودي على طائفة النصارى بان لا يركبوا الدواب ولا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجواري والعبيد ومن كان عنده شيء من ذلك باعه واعتقه وان يلبسوا زيهم الذي شد الزنار والربوط »[3]

وفيه يوم الاربعاء نودي على النصارى واليهود ان يغيروا اسماءهم التي على اسماء الانبياء كابرهيم وموسى وعيسى ويوسف واسحاق وان يحضروا جميع ما عندهم من الجواري والعبيد وان لم يفعلوا وقع التفتيش على ذلك في دورهم واماكنهم فصاحوا على ذلك بانل تحصل العفو واذنوا لهم في ان يبيعوا ما عندهم من الجواري والعبيد ويقبضوا اثمانها لانفسهم ولا يستخدموا المسلمين فخرجوا ما عندهم وباعوا بعضه واودعوه عند معارفهم من المسلمين »[4]

٣ الوانه العيار

كان العيار يتناول في الواقع كل ما دعا الى التشهير والتمييز مما خالف المليوس او المألوف ، فتدخل فيه كل الالوان كما تقدم في شرح الوان الزنار. قال القلقشندي في ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته في عقد الذمة :

« المطلوب منهم ستة اشياء . . . منها التمييز عن المسلمين في اللباس بان يخيطوا في ثيابهم الظاهرة ما يخالف لونها سواء في ذلك الرجال والنساء والاولى باليهود الاصفر وبالنصارى الازرق والاكهب وهو المعبر عنه بالرمادي وبالمجوسي الاسود والاحمر »[5]

---

١) السلوك للمقريزي خزانة اكسفرد بنمبر الرقام Marsh. 287

٢) نهاية الارب خزانة ليدن Warn. 2 (ms) f° 214

٣) عجائب الاثار ٢ : ١٢٤

٤) عجائب الاثار ٣ : ١٢٦

٥) صبح الاعشى ١٣ : ٣٦٤

. وقد فاته ان الاحمر كان ايضاً شعار اليهود السامريين ، كما نقلناه في الكلام على الوان العمائم . وكانت الصفرة اشهر الوان غيار اليهود والنصارى، قبل ان ينفرد اليهود بالصفرة ، والنصارى بالزرقة في القرن السابع للهجرة.

ولسبط ابن التعاويذي في الصفرة :

ونازح الاهل بعيد الدار حبيته صفراء كالدينار
كأنه الذمّيّ في النيار صلت الجبين اسود العذار(١

ولابي الفرج بن هندو الكاتب في وصف تردده على الحانات :

كلّ ما لي فهو رهن ما له من فكاك في مساء وابتكار
فؤادي ابدًا رهن الهوى ، وردائي ابدًا رهن عقار
لو ترى ثوبيّ مصبوغًا بما قلت ذمّيّ نبدى في غيار(٢

وربما عبّر احياناً عن الصفرة باللون العسلي . قال ابن الجوزي في اخبار سنة ٢٩٦ (٩٠٨ — ٩٠٩ م) : « فيها امر المقتدر ان لا يستخدم احد من اليهود ولا من النصارى الا في الطب والجهبذة فقط وان يطالبوا بلبس العسلي »(٣ . . .

وقال ابن الاثير في اخبار سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) : فيها امر المتوكل اهل الذمة بلبس الطيالس العسلية . . . ومن خرج من نسائهم تلبس ازارًا عسليًا»(٤ وزاد على ذلك القلقشندي : « خرج امره بان تلبس النصارى واليهود ثياب العسلي وان لا يمكنوا من لبس البياض لئلا يتشبهوا بالمسلمين . . .»(٥

وورد قايلًا ذكر العسلي في الشعر فقال ابو محمد عبدالله بن محمد الاصفهاني :

ان هذا النيار البس عطفي عسليًا وديني التوحيدا(٦

ويدخل في السواد اللون النيلي ، كما سبق من كلام عبد الواحد المراكشي في لباس اليهود بالمغرب ، في ايام امير الموحدين يعقوب بن يوسف.

١) ديوانه ٢٣٨
٢) ارشاد الاريب ٥ : ١٦٩ — ١٧٠
٣) مرآة الزمان ، طبعة لندرة Or. 4619 f° 41°
٤) الكامل لابن الاثير ٧ : ١٧ ؛ والطبري ٣ : ١٣٩٠
٥) صبح الاعشى ١٣ : ٢٦٦
٦) خاص الخاص للثعالبي طبعة القاهرة ١٨٠٩ ، ص ١٢٦

٤ رقاع الثياب

لم نجد في كل ما راجعناه من اخبار الامويين اقلّ اشارة الى تمييز الذمّيين في ايامهم برقاع في ثيابهم تخالف لونها التدلّ عليهم . ولا شك انها من وضع العباسيين . واول مرّة ورد ذكرها صريحاً كان في حكاية اضطهاد المتوكل على الله النصارى سنة ٢٣٥ (٨٤٩م) ، وهو اول من اسرف في إعناتهم والتضييق عليهم ، وابتدع بعض الاحكام الجائرة لامتهانهم واذلالهم ، عقيب سخطه على طبيبه بختيشوع بن جبرئيل حكيدة دُبّرت عليه لا تخلو من الحسد على نعمته وثروته منذ ايام الرشيد . قال سعيد بن بطريق : « وسخط المتوكل على بختيشوع المتطبب وكتب الى جميع البلدان ان يأخذوا النصارى بلباس الغيار والرقاع في الدراريع رقعة من قدام ورقعة من خلف . . . »[1]

ووصف الطبري هذه الرقاع اتمّ وصف بقوله : « تكون احدى الرقعتين بين يديه عند صدره والاخرى منها خلف ظهره وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر اربع اصابع ولونها عسلياً »[2] وكانت هذه الرقاع قاصرة على الرجال لظهور ثيابهم واما النساء فقد أُمرن ان يتخذن الأزر العسلية .

وقد سبق من كلام الخفاجي ان الرقعة تكون على الكتف ، ولا يمتنع ان تكون ايضاً على الذيل . وقد اشتهر بها اليهود في بلدان الفرنج . واكثر ما كانت تكون الرقعة على القلنسوة او على الصدر من لون اصفر مستديرة واذلك كان يقال لها عندهم : Rouelle jaune au chapeau et pourpoint

وكانت هذه الرقاع كسائر علامات الغيار تبدو وتغيب حسب الايام والاحوال . ثم يعود الخلفاء والملوك الى احيائها ، كما نقل عن المقتدر بالله انه في سنة ٢٩٦ (٩٠٩م) امر « ان لا يستعان باحد من اليهود والنصارى والزموا بيوتهم وأخذوا بلبس العسلي والرقاع من خلف ومن قدام »[3] . وفي

١) نظم الجوهر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ٣ : ٦٣

٢) تاريخ الرسل والملوك ، طبعة اوروبة ، ٣ : ١٢٩٠ – ١٢٩٤

٣) المنتظم لابن الجوزي ، ٥٩٠٩ باريس ، ٨٢

مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي :« وتعليق الرقاع المصبوغة على دراريعهم »[1]. وانفرد ابن كثير بالقول ان الرقاع تكون ايضاً على عمائمهم وعزا هذا الامر الى المتوكل على الله الخليفة العباسي سنة ٢٣٥/٨٤٩[2]. وقد وهم في ذلك والاظهر ان لفظة عمائمهم وردت غلطاً في كتابه المطبوع في مكان «دراريعهم».

٥ ... غيار الحمامات

اوّل من ابتدع المظالم النصرانية وعقد لها شروطاً واحكاماً سلطانية في الخلافة العباسية هو المتوكل على الله. وبعد ان قربهم، وتسادم اشهر الاطباء النساطرة بينهم وهو جبرئيل بن بختيشوع، غضب عليه واقصاه ونكبه، وقلب لهم ظهر المجن، وابتكر اهانات وضروباً من الاذلال والامتهان لهم بلغ بها غاية السخف والنكاية. ولم يكتف بالتضييق عليهم في ملابسهم ومعاشهم بل فتقت له قريحته الغاشمة ان يطاردهم ويقتص آثارهم حتى في الحمامات حيث تتساوى الاجسام في العراء ولا يميز بين الكافر والمؤمن، فسامر ان يعلق النصارى واليهود في اعناقهم جلاجل اي اجراساً، كما تعلق في رقاب التيوس والدواب. ولما اذاع اول احكامه الجائرة سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) قال ابن مسكويه « امر بأخذ النصارى واهل الذمة بلبس العسلي ... وان دخلوا الحمام كان معهم جلاجل»[3]. واقتدى به في مثل هذه الحماقات والغرائب الحاكم بامر الله الفاطمي فامر سنة ٣٩٨ (١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) « ان يتميز النصارى في الحمامات بصليب معلقونة في رقابهم، وان يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب فلبثوا بذلك مدة ثم زال»[4]. وفي السنة المذكورة كان الغيار عموماً قد بطل من بغداد بشفاعة ابي الفرج سعيد بن ابرهم الواسطي القس الزاهب طبيب القصر في خلافة المستظهر بالله[5]. فاعاده الحاكم في مصر وادخله في الحمامات.

---

١) خزانة بريتش ـ وزيوم Or. 4619 f° 41b

٢) البداية والنهاية ١٠ : ٢١٣ — ٢١٤

٣) السادس من تجارب الامم، طبعة سنة ١٨٧١، ص ٥٤٥

٤) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد الانطاكي ١٩٥

٥) اخبار فطاركة المشرق ١٤٤

والحاكم هو ، فيما يظهر ، اول من افرد حمامات خاصة للنصارى واليهود ، ومنع اختلاطهم بالمسلمين . ولم نجد لاحد قبله امرًا بهذا المعنى وروى ابن خلكان ان امر الحاكم في غيار الحمامات كان سنة ٤٠٢ (١٠١١ م) اي بعد اربع سنوات من التاريخ الذي نقله يحيى بن سعيد ، ورواية ابن سعيد اصح لانه كان اقرب من عصر الحاكم ، ووقف على كتابات وآثار من عهده لم يقف عليها ابن خلكان ، لتأخر زمانه . وهذا نص كلامه : « فيها امر النصارى واليهود الا الخيابرة بلبس العمائم السود . . . وان يكون في اعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان وعلى حمامات اليهود صور القرامي[1] . يريد لا شك لا ما اشبه القرامي في الشكل والرسم بل ما كان حقيقة على هيئتها من اصول الشجر وقد تصفحت لفظة قرمية في تاريخ ابن كثير المطبوع وجاء في مكانها « قربة بالباء » ، اي الوعاء الذي يجعل فيه الماء ، والكتاب مشحون بامثال هذه الغلطة الفاحشة . ولا بأس ان ننقل ههنا رواية ابن كثير على طولها لما تضمنه من الفوائد والزوائد قال:

« سنة ٣٩٨ (١٠٠٧ – ١٠٠٨ م) نودي في النصارى من احبّ الدخول في دين الاسلام دخل ومن لا يدخل فليرجع الى بلاد الروم آمنًا ومن اقام منهم على دينه فليلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زادها الحاكم على العمرية من تعليق الصلبان على صدورهم وان يكون الصليب من خشب وزنه اربعة ارطال وعلى اليهود تعليق رأس العجل زنته ستة ارطال وفي الحمام يكون في عنق الواحد منهم قربة (قرمية) زنة خمسة ارطال بأجراس وان لا يركبوا خيلًا ثم بعد هذا كله امر باعادة بناء الكنائس التي هدمها واذن لمن اسلم منهم في الارتداد الى دينه وقال نتزّه مساجدنا ان يدخلها من لا نية له ولا يعرف باطنه »[2] .

وقد خلط ابن كثير بين عدة اخبار للحاكم وانفرد بوجوب تعليق اجراس لليهود مع القرامي ، ومنعهم ركوب الخيل ، وهو لم يُنقل عن الحاكم . ومن الشقاء ان لا يكون المؤرخون قد اعتادوا امانة النقل ونسبة كل قول لمن سبقهم من الرواة ، ليستطيع الناظر في اخبارهم مقابلة ما تقدم منها بما تأخر واسناد كل رأي الى صاحبه ، والتمييز بين الاصيل منه والدخيل ليتيسر نقدها وتزييف الضعيف منها والتنبيه على الراجح منها والمرجوح .

١) وفيات الاعيان ٢ : ١٦٦

٢) البداية والنهاية ١١ : ٣٣٩

ولا شك ان تعليق الصلبان والقرامي والاجراس في الاعناق كان عاصفة هبّت ثم سكنت ، وما لبثت ان تنوسيت واطرحت ، لصعوبة التشدّد بها وارغام الناس عليها ، ولذلك اتُخذ بدلاً منها تعليق الدراهم في الاعناق مكتوب عليها « ذمّي » ، او خواتم من حديد او رصاص . قال ابن الجوزي بتاريخ سنة ٤٨٤ (١٠٩١ م) :

« فيها خرج توقيع من الخليفة بالزام اهل الذمة بلبس الثيار والزنار والدرهم الرصاص المعلق في اعناقهم مكتوب فيه « ذمي » وان تلبس النساء مثل ذلك الدرهم في حلوقهن عند دخول الحمامات ليُعرفن » (١

ولم يذكر احد هل كان يُختم احياناً او يُكوى في الاعناق لفظ « ذمي » كما كان يختم قبلاً في مصر على ايدي الرهبان لجبايتهم واما الختم بالرصاص فقد زعموا انه من وصاة عمر بن الخطاب ، رواه ابن الحكم باسناده الى عبدالله بن عمر قال : «كتب عمر بن الخطاب ان يُختم في رقاب اهل الذمة بالرصاص»(٢) . وكان ثاني الخلفاء الراشدين ارشد واعقل من ان يُسيء الى مثل هذه الدنايا التي تجلّ عنها سياسته البصيرة ، ويضيق بمثلها وقته الذي انفقه في ادارة الفتوحات ومتابعة النجدات والامداد وتصيير الامصار . وقد نسبوا له من الكتابات والاوامر والنواهي ما لا تتسع له خلافته القصيرة الامد ، واكثرها منحولة له ، موضوعة من بعده في القرنين الثاني والثالث ، فلا يجب ان يكترث لها ولا يوثق بها . ورووا في معنى هذا الختم في الرقاب بيتاً لبشار بن برد في آخر ابيات له في عبدة قال فيه :

ختم الحبّ لها في عنقي موضعَ الخاتم من اهل الذمم

قال ابو الفرج الاصبهاني : « وكان بشار ينكر هذا البيت »(٢)

وقد تعدّدت الاوامر السلطانية في غيار الحمامات نروي منها ما يأتي مرتبة حسب تواريخها التالية لما قدمناه منها :

« سنة ٧٢١ (١٣٢١ م) نودي على النصارى ان يخرجوا بالثياب الزرق والعمائم الزرق وان يحمل الجرس في اعناقهم في الحمام (٣ .

١) عجائب البدائع ، ١٥٦٧ باريس ، ٣٦

٢) الاغاني ٦ : ٥٣

٣) تتمة المختصر لابن الوردي ٢٧١

« سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) في يوم الجمعة ثامن عشر رجب الفرد قرئ بجامع دمشق . . . كتاب السلطان بالزام اهل الذمة بالشروط العمرية وزيادات أخر منها . . . ان لا يدخلوا الحمامات الا بالعلامات من جرس او خاتم رصاص اصفر او رصاص ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات الحمامات وليكن لهن حمامات تختص بهن » (١)

« سنة ٧٦٥ (١٣٦٣ م) يوم الخميس حادي عشر صفر نودي في البلد (دمشق) على اهل الذمة بالزامهم بالصغار وتصغير العمائم وان لا يستخدموا في شيء من الاعمال . . . وان يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات اجراس . . . (٢)

« سنة ٧٦٧ (١٣٦٥ — ١٣٦٦ م) نودي في البلد (دمشق) بان نساء اهل الذمة لا تدخل الحمامات مع المسلمات بل تدخل حمامات تختص بهن ومن دخل من اهل الذمة الرجال مع رجال المسلمين يكون في رقاب الكفار علامات يعرفون بها من اجراس وحوائج ونحو ذلك » (٣)

« في سنة ٨٠١ (١٣٩٨ — ١٣٩٩ م) نودي في القاهرة . . . ان النصارى واليهود لا يدخلون الحمامات الا وفي اعناقهم اجراس » (٤)

« وفي سنة ٨٢٢ (١٤١٩ م) نودي ان من دخل منهم الحمام فليكن في عنقه جرس . . . وكسرت عليهم الحمامات وضرب منهم جماعة لاجل ذلك » (٥)

« وفي سنة ٨٣٠ (١٤٢٦—١٤٢٧ م) نودي على اهل الذمة ان يصغروا عمائمهم وان لا يدخلوا الحمامات مع المسلمين ومن دخل منهم فليكن في عنقه جلجل او طوق حديد » (٦)

وكان النساء سواء في ذلك والرجال . نصّ الفراء على « ان الذمية اذا دخلت الحمام يكون في رقبتها خاتم رصاص او حديد او جلجل ليقع الفرق بينها وبين المسلمات »[٧] . وزاد السيوطي الخلخال ولم يخص به النساء فقال : « اما اهل الذمة اذا دخلوا الحمام مع المسلمين فيدخلون منفردين الا انهم اذا دخلوا حماماً فيه مسلمون أمر كل واحد منهم ان يجعل في عنقه خاتماً من حديد او رصاص ونحوه او في رجله خلخالاً وذلك ليتميز بذلك من المسلمين فلا يُوقّر ولا يُحترَم »[٨] .

١) البداية والنهاية ١٤ : ٢٥٠
٢) البداية والنهاية ١٤ : ٣٠٥ - ٣٠٦
٣) البداية والنهاية ١٤ : ٣١٧
٤) السلوك للمقريزي ، ١٧٢٨ باريس ، ٣٥
٥) السلوك ، ١٧٢٧ باريس ، ٣٢٨ — ٣٢٩
٦) انباء الغمر للعسقلاني ، ١٦٠٢ باريس ، ٥٤
٧) بيان ما يلزم اهل الذمة فصل ١٥
٨) تحفة المتأمل ومرشد المتأهل ، لندرة Or. 4640 f° 137

ولم نرَ ذكر الخلخال لاحد غيره ، وهو للرجال من الغرابة بمكان ، ما لم يقصد به النساء . ولا يبعد ان يكون تصحيف الجاجل كما جاء في عجائب البدائع لابن الجوزي ، كما سيمرّ بنا قريباً .

٦ ـ نعال الرجال واخفاف النساء وأزرهن

في جملة ما زعموه من الشروط العمرية ان لا يتشبه الذميون بالمسلمين « في شيء من لباسهم في قلنسوة . . ولا نعل ذات عذبة . . . ». وعلّق الفراء على ذلك التفسير الآتي : « اما النعلان فقد قيل انه تجعل شُرُك نعالهم مثنية وان يحذوها حذو المسلمين لان هذا كان عادة لهم في لباسها وأمروا بالبقاء عليه ليقع الفرق والتمييز بينهم وبين المسلم وانما اعتبر ذلك في النعال لان المتأمل منا ينظر الى قدم الماشي والذاهب في الطرقات فاذا وجد هيئته على هيئته (اي هيئة الذمي) حكم له بحكمهم »[1] .

واختلفوا في تعيين الوان الاخفاق للنساء. ففي سنة ٤٨٤ (١٠٩١م) خرج توقيع من الخليفة بالزام « اهل الذمة لبس الغيار . . . وان يلبس النساء الخفاف فردًا اسود وفردًا احمر وجلجلًا في ارجلهن »[2]

« سنة ٧٥٥ (١٣٥٤ م) جيء بالبطرك ورئيس اليهود فوقفا على ارجلها وقرئ عليهما نسخة العهد وفيها ان تلبس المرأة السائرة خفين احدهما اسود والآخر ابيض »[3]

« وفي سنة ٧٦٥ (١٣٦٣ م) يوم الخميس خامس عشر صفر نودي في البلد (دمشق) على اهل الذمة . . . ان يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات اجراس وان يكون احد النعلين اسود مخالفًا للون الاخرى ففرح لذلك المسلمون ودعوا للآمر بذلك »[4]

« وفي سنة ٧٦٧ (١٣٦٥ – ١٣٦٦ م) أُمر نساء اهل الذمة بان تلبس المرأة خفّيها مخالفين في اللون بان يكون احدهما ابيض والآخر اصفر او نحو ذلك »[5]

واما أُزر النساء فكانت تابعة لعمائم الرجل في اللون ، اي الزرقة للنصرانيات ، والصفرة لليهوديات .

١) بيان ما يلزم اهل الذمة فصل ١٠

٢) عجائب البدائع ، ١٥٦٢ باريس ، ٢٦

٣) السلوك ، ١٧٢٧ باريس ، ١٦ ، وصبح الاعشى ١٣ : ٢٧٩

٤) البداية والنهاية ١٤ : ٢٠٥ – ٢٠٦

٥) البداية والنهاية ١٤ : ٢١٧

« وفي سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) قُرئ بجامع دمشق . . . كتاب السلطان . . . ان يكون ازار النصرانية من كتان ازرق واليهودية من كتان اصفر وان يكون احد خفّيها اسود والآخر ابيض وان يحكم حكم مواريثهم على الاحكام الشرعية »(١

٧ ـ الطيالس المقوّرة والمصبوغة

قال جلال الدين السيوطي في كتابه « الاحاديث الحسان في فضل الطيلسان » :

« نصّ العلماء على انه ينبغي ان يكون للعالم لباس خاص ليُعرفوا فيُسألوا ويرقّروا.. ومن هنا منع اهل الذمة من مساواة المسلمين في اللباس وألزموا بلباس يتميزون به بشرط عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك .

حكى الماوردي في الحاوي والمرزباني في البحر وجهاً ان اهل الذمة يمنعون من لبس الطيلسان لانه اجل ملابس المسلمين وحكاه بعدهما كثير من الاصحاب منهم الرافعي والنووي وابن الرفعة وآخر من حكاه وعلّله بهذه العلة الكمال الدميري في شرح المنهاج ونقله صاحب البيان عن مذهب ابي حنيفة واحمد وكذا نقله الرافعي عنهما واستدركه الزركشي في القواعد بان القاضي ابا يعلى من الحنابلة قال : لا يُمنعون من الطيلسان المقوّر لانه لباس اليهود قديماً والعجم وما كانت العرب تعرفه ورأيت في الهداية وغيرها من كتب الحنفية ما نصّه : ويُمنعون من لباس يختصّ باهل العلم والزهد والشرف وفي الينابيع من كتبهم ما نصّه : وليس لهم ان يلبسوا طيالس المسلمين ولا اردية مثل اردیتهم ولا كل لباس يختص باهل العلم والزهد والشرف وقال الحافظ ابو القاسم بن عساكر في تاريخه : كتب عمر بن عبد العزيز الى امصار الشام : لا يتشبّهنّ نصراني مفروق الناصية ولا يلبس قباء ولا يتشبّهنّ الا بزنار من جلد ولا يلبسنّ طيلساناً

قال القاضي ابو يعلى الفراء من الحنابلة : لا يُمنع اهل الذمة من الطّيلسان وهو المقوّر الطرفين المكفوف الجانبين المكفوف بعضها الى بعض وما كانت العرب تعرفه وهو لباس اليهود قديماً والعجم ايضاً والعرب تسميه ساجا ويقال ان اول من لبسه من العرب جبير ابن مطعم وكان ابن سيرين يكرهه »(٢

ولما اخذ الرشيد سنة ١٩١ (٨٠٦ – ٨٠٧ م) اهل الذمة بمخالفة زي المسلمين في ملبوسهم(٣) كان في جملة ما تميزوا به صبغ الطيالسة بالصفرة « فدخل

---

١) البداية والنهاية ١٤ : ٢٥٠

٢) الاحاديث الحسان في فضل الطيلسان ، مخطوط عندنا ، ومنه نسختان في خزانة الاسكوريال في اسبانية.

٣) العبر لابن خلدون ٣ : ٢٢٦

اليه جبرئيل بن بختيشوع الطبيب بطيلسان مصبوغ فانكر ذلك عليه فقال : انا احد الذمة ولا يجوز ان اخالف زيهم فاستحسن ذلك من قوله ورفع ذلك عن النصارى »[1] . ولكن المتوكل على الله ما لبث ان احيى هذه المظلمة « وامر اهل الذمة بلبس الطيالس العسلية »[2] . وفي سنة ٤٠٣ (١٠١٢ م) تقدم الحاكم ان تلبس النصارى واليهود دون الخيابرة طيالسة سودا وعمائم سودا »[3] .

وسقط بعد ذلك ذكر الطيلسان في احكام اهل الذمة ، ولا ريب انه كان كل مرة داخلا في جملة الشعار .

٨ ـ حز النواصي والامتناع من ارسال الذوائب

قال القلقشندي في ذكر ما يحتاج الكاتب الى معرفته في عقد الذمة :

« ان كان على رأس أحدهم شعر أمر بجز ناصيته ويُمنعون من ارسال الضفائر كما تفعل الاشراف »[4]

وقد مرّ بنا ان عمر بن عبد العزيز كتب الى امصار الشام : لا يشبهنّ نصراني مفروق الناصية وفسر الفراء هذا الفرق بقوله :

معناه اذا كان على رأسه جمة شعر يقبرّه على ما هو عليه ولا يفرق الشعر فرقتين كما يفرق النساء شعورهن لان الفرق من سنّة المسلم واما جزّ مقادم الرؤوس فهو ان يتحذّقوا على عادتهم وهو الشعر الذي بين العذار والشرعتين ولا يتحذقوا شوابير فانها عادة الاشراف . وقد امتنع بعض اصحاب ابي حنيفة من هذا وقال : « هذا الموضع يتغطى بالقلانس والعمائم فلا معنى له » . وهذا خلاف ما روي عن عمر ولان العادة ان مقدم الرأس يظهر ولا يتغطى بالعمامة »[5]

وزاد ابن تيمية فقال :

« لا يتشبهون بالمسلمين لا في شعورهم ولا في لباسهم فلا يفرقون شعورهم كما تفعل الفقهاء ولا يرخون لهم الذوائب كما تفعل العلماء ولا يتشبهون باجناد المسلمين كما كان يفعله اهل البرّ من الجبلية »[6]

١) اخبار قطار كة كرسي المشرق ٧٣

٢) الكامل ٧ : ١٧

٣) كتاب الذيل ليحيى بن سعيد ٣٠٢

٤) صبح الاعشى ١٣ : ٣٦٤

٥) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ١١

٦) نسخة الدرج الذي قرئ بدار الامارة بدمشق على الامراء والملوك والقضاة ٧ شعبان سنة ٧٠٠ في اقامة الشروط العمرية مخطوط عندنا .

ومن هذا التفسير يتضح بعض ما أقحم في الشروط العمرية من الزيادات والتعليقات التي احدثها الفقهاء ، وحكموا فيها ما نشأ في ايامهم من العادات والازياء ، ودسوها في عهد اهل الذمة ليوهموا قدمها ويستعيروا لها سلطة ثاني الخلفاء ، وهو مؤلهم واليه مرجعهم في ردّ الاحاديث وتأليف الحجج .

٩ — الركوب على الحمير عرضاً بالسروج الخشب والاكف دون الخيل والبغال

اكثر ما تدور شروط اهل الذمة على الملبوس والمركوب . وقد ذكرنا اهم ما يتعلق باللباس ، واما المركوب فقد زعموا ان عمر قال :

« يركبون على الأكف عرضاً ولا يركبوا الخيل لاحا من المفاخر واما يركبون البغال والحمُر لانه لا فخر في ركوبها ويكون ركوبها على الاكف عرضاً دون السروج وقوله عرضاً معناه يكون الرجلان الى جانب والظهر الى الجانب الآخر وقيل يركبون سروجاً وعلى قربوس السرج مثل الرمانة لان هذا كان صفة مراكبهم فأمروا بالبقية عليها ليحصل الفرق بذلك »[1]

واختُلف في البغال . ذهب الغزالي وغيره الى المنع منها ، والراجح الجواز . الا انهم لا يتخذون اللُجُم المحلاة بالذهب والفضة[2] . ومع هذا الجواز غلب في المراسيم السلطانية المصرية المنع من ركوب البغال مطلقاً وهذه منصوص بعض هذه الاحكام التي نودي بها في مصر والشام :

« سنة ٦٩٦ (١٢٩٦-١٢٩٧ م) نودي بمصر في ذي الحجة ان لا يركب احد من اهل الذمة فرساً ولا بغلا ومن وجد بيده راكباً ذلك أخذ منه »[3]

« سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) في يوم الجمعة ثامن عشر رجب الفرد قرئ بجامع دمشق بالمقصورة بحضرة نائب السلطنة وامراء الاعراب وكبار الامراء واهل الحل والعقد وعامة كتاب السلطان بالزام اهل الذمة بالشروط العمرية وزيادات أخرى منها . . ان لا يركبوا الخيل ولا البغال ولكن الحمير بالاكف عرضاً . . »[4]

« في سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) برز مرسوم السلطان (بمصر) بان يكون ركوب اليهود والنصارى على الحمير عرضاً وان تكون قيمة الحمار دون المائة درهماً »[5]

---

١) بيان ما يلزم اهل الذمة فعله ١٠

٢) صبح الاعشى ١٣ : ٢٦

٣) البداية والنهاية ١٣ : ٢٥

٤) البداية والنهاية ١٤ : ٢٥

٥) الجوهر الثمين لابن دقاق رقم ١٦٩٣ من الخزانة التيمورية

« وفي سنة ٧٥٥ (١٣٥٤ م) أمروا ان لا يركبوا الخيل والبغال ويركبوا الحمير عرضاً بالاكف من غير تزيين ولا قيمة عظيمة لها »(١

« في سنة ٧٦٥ (١٣٦٣ م) يوم الخميس خامس عشر صفر نودي في البلد (دمشق) على اهل الذمة ان لا يركبوا الخيل ولا البغال ويركبوا الحمير بالاكف عرضاً »(٢

« وفي سنة ٧٨٢ (١٣٨٠ م) ألزمت اهل الذمة بركوب الحمير بسبب ارسال الرجل »(٣

« وفي سنة ٨٢٢ (١٤١٩ م) امتنعوا جميعهم من ركوب الحمير بحيث ان العامة اذا رأوا نصرانياً على حمار صرعوه واخذوا حماره وما عليه فصاروا لا يركبون الحمير الا خارج القاهرة »(٤

ومن الجهل والسخافة عدّ ركوب الحمير حطة وعاراً . وقد كان الخلفاء العباسيون انفسهم لا يأنفون من اتخاذها . وكان للرشيد حمار يركبه في القصر اسود قريب من الارض(٥ . وقبله ركب الهادي الحمار . وفي كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي في خبر له « اذا الباب قد فتح واذا الخدم قد دخلوا واذا امير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم »(٦ وركب المعتصم بعدهما الحمار « وكان قد زار الواثق ثم دعا بحماره فركبه »(٧ . وكان في دار الخلافة ببغداد دار انشأها المكتفي بالله ابن المعتضد سُميت دار الحمار « لانه كان يصعد اليها على حمار له لطيف وتشرف على ما حولها »(٨

وقد وصف عبداللطيف البغدادي الحمير المصرية فقال:

« الحمير بمصر فارهة جداً وتركب بالسروج وتجري مع الخيل والبغال النفيسة ولها تسيقها وهي مع ذلك كثيرة العدد ومنها ما هو عالٍ بحيث اذا رُكب يسرج اختلط مع البغلات يركبه رؤساء اليهود والنصارى يبلغ ثمن الواحد منها عشرين ديناراً الى اربعين »(٩

---

١) السلوك ، ١٧٢٧ باريس ، ١٦
٢) البداية والنهاية ١٤ : ٣٠٥ - ٣٠٦
٣) انباء الغمر ، ١٦٠١ باريس ، ٢٥ - ٢٦
٤) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٩٨ - ٠٠ ٤
٥) الاغاني ٥ : ٢٠
٦) المحاسن والمساوئ ١٢٦
٧) نهاية الارب ٤ : ٢٢٦
٨) معجم البلدان ٤ : ٢٤
٩) كتاب الافادة والاعتبار ١٩

ولذلك لم يُنعَ النصارى واليهود في الخلافة العباسية الا عن ركوب الخيل والبراذين فقط ، وهي الخيل الغير الاصيلة . وفي سنة ٢٣٥ (٨٤٩ م) امر المتوكل بلبس اهل الذمة الطيالس العسلية وركوبهم البغال والحمير بِرُكب الخشب والسروج التي فيها الأُكر ولا يركبوا الخيل والبراذين ويصيروا على ابوابهم خشباً فيها صورة الشياطين » واعاد الطبري ، وابن الاثير ، والمقريزي مثل هذا بتاريخ سنة ٢٣٩ (٨٥٣ م) واسخف ما فيه تسمير صور الشياطين على ابواب الذميين. وقد انفرد به المتوكل ، ولم نرَه لاحد من قبله ولا من بعده ، ولا عجب من اسرافه في هذا الاذلال والاضطهاد وقد اشتهر عنه انه « اهلك العلماء والكتاب في زمانه وحطّ مراتبهم وعادى العلم واهله فانقضت العلوم في ايامه وقتل كثيراً من الكتاب واستصفى اموالهم وهدم منازلهم ولقي اهل الذمة منه الشدائد وكل اذى ومكروه بتغيير زيهم وتذليلهم واهانتهم وهدم بِيَعهم وكنائسهم وهدم قبورهم وتسويتها بالارض »[1] . ولذلك عجل الله في الانتقام منه ، وسلّط عليه ولده المنتصر ، فأغرى الاتراك بقتله ، وهو اول خليفة لقي حتفه بيد احد قواده منهم ، وهلك بنفس السيف الذي اهداه له فكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

وظلّ الذميون يركبون الحمير بغير ارسال الرجل الى سنة ٧١٠ (١٣١٠ م). وفيها وصل رسل قيصر الروم وصحبتهم رسل الكرج الى الابواب السلطانية بمصر وشُفِعوا في فتح الكنائس التي كانت مغلقة منذ عشر سنوات « ورسم للنصارى بالاستواء في الركوب وكانوا قبل ذلك يركبون عرضاً من جهة واحدة[2] » ولكن ما عتم هذا الرسم ان أُهمل وأُبطل وتجددت الاوامر السلطانية منذ سنة ٧٥٤ (١٣٥٣ م) ، وما يليها بالركوب على الحمير عرضاً ، كما تقدم من كلام ابن دقماق ، والمقريزي ، وابن حجر العسقلاني.

---

١) اخبار قطار كة كرسي المشرق من كتاب المجدل لعمرو بن متى ٧٠ – ٧١

٢) غاية الارب ١٥٧٨ باريس ، ٢١١ – ٢١٢